

الأعمال الكاملة

الوسطية العربية

مذهب وتطبيق

الكتاب الخامس
حلم ليلة القدر
(رواية عربية)

تأليف

دكتور عبد الحميد إبراهيم



دار المعارف

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

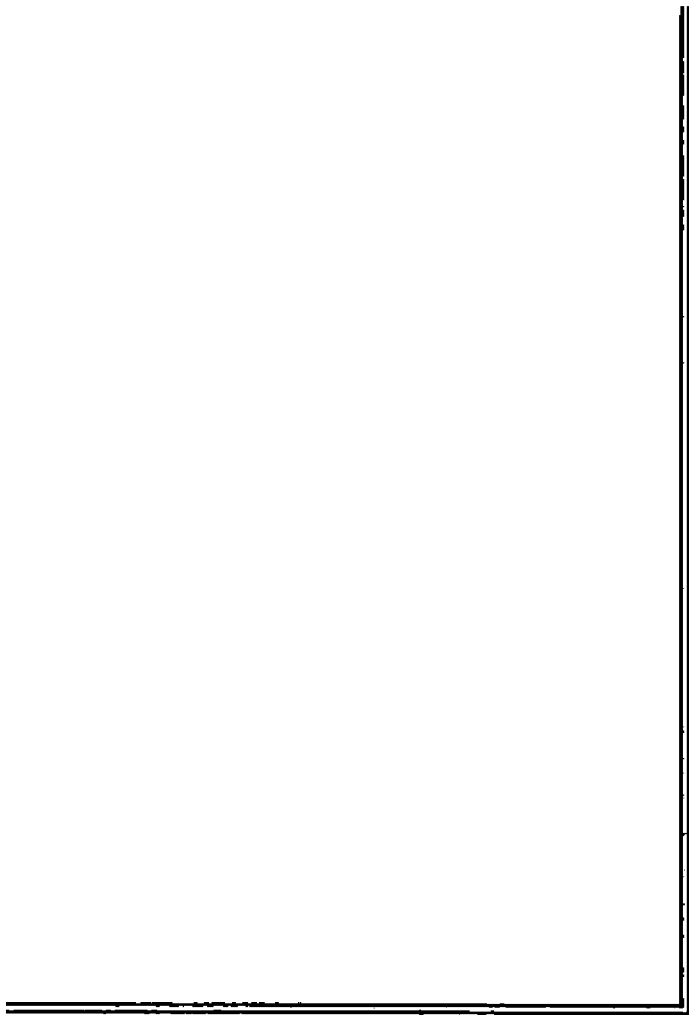
مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهه سواه ، وأصلي وأسلم على خير خلق الله ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله الغر الميامين ، وأصحابه البررة الطاهرين .

وبعد ، فقد رانت على النفس قتامة ، وعلى القلب جهامة ، كتبت كتابي " الوسطية العربية " ، وأوقفت عليه جل عمري ، ومعظم دهري ، وأودعته الأخبار والأفكار ، وظننته يسر الأخيار . ولكن الإخوان غفر الله لهم يمرون عليه ، ولا يلقون بالألإ إليه . ما بين مقتبس منه لا يشير إليه ، ومتعجل لا يلتفت إليه ، فأخذت أشكر إلى الله ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس .

كانت الليلة ليلة القدر ، التي يفرق فيها كل أمر ، ليلة السابع والعشرين من رمضان الكريم ، سنة سبع وأربعمئة بعد الألف ، من هجرة سيد الخلق ، فكان أن غشيتني طائفة من النعاس ، نعمة من ربنا الناس . ﴿ إذ يغشاكم النعاس أمانة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ .

سفر النصر



1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

الهواء غير الهواء ، والأثير يحمل تشكيلات خاصة يستطيع فك رموزها .
كان الموسم موسم الحج ، طاف بالمشاهد التي كان يسمع ويقرأ عنها
منذ صباه ، بدر ، أحد ، البقيع ، زمزم ، عرفات ، منى ، الصفا والمروة .
لم يجد آثاراً شاهقة ، ولا معابد ضخمة .

ولكنه أدرك أن الظاهر ليس هو كل شيء ، وأن هناك حضارة لا تجد
نفسها في العمارات ولا المباني الشاهقة ، بل تحمل تراثها خلال الهواء ،
يعيشه الأبناء والأحفاد يتنفسونه ويتفهمونه .

وعرف أن الإنسان ليس جسداً فحسب ، ولكنه نفس أيضاً يسري في
الأثير ، ويجوله إلى تشكيلات خاصة ، إلى لغة تنتظر من يفهم سرها .

وتعجب من هؤلاء الذين يريدون أن يفصلوا الكون عن الإنسان ، إنهم
يقفون عند الظاهر ، عند الشيء الغفل ، ويحرمون الكون من نفسه ،
الإنسان هو نفس الكون ، هو سره ، هو الاسم الذي يعطيه معناه ، وتذكر
قصة الجريليه ، نسي منها كل شيء حتى عنوانها ، ولم يبق منها في ذاكرته
إلا رائحة القهوة تصدر من الفنجان ، إن تلك الرائحة الساخنة تشي بأن
إنساناً كان هنا ، ثم غادر المسرح تاركاً وراءه أنفاسه تعمر المكان .

وتوصل وهو في مكانه امام جبل أحد إلى نتيجة ، وهي أن الحضارة لا
تقاس بالمباني الشاهقة ولا العمارات الضخمة ، ولكنها تقاس بأنفاس
الإنسان ، وهي تشكل الأثير ، وجرب ذلك عملياً في سفراته المتعدده ،
كان يحط في انجلترا فيحس أن الهواء محمل بلغة قد لا يفهمها ، ولكنه يحس
أن تلك اللغة تحمل تشكيلات موسيقية تختلف عما تلتقطه أذناه حين
ينهب إلى الصين ، أو حين يرحل إلى القاهرة .

وتدربت أذناه على ذلك . فكان يقيس حضارة البلد بلغة أثيرها ، وكان يدرك من ذلك خصوصيتها ، ولم تعد تخدعه الظواهر الخارجية ، فقد تكون براءة تحجب عنه اللغة الحقيقية كان يحط في بعض البلدان الإفريقية ، يجد فيها الشوارع المستقيمة ، والعمارات الفخمة ، ولكنه يتحسس أثيرها ، فيذكره بالأجواء الأوروبية ، ويدرك على الفور أن الحضارة الخارجية التي يراها إنما هي وهم وخداع ، وأنها قد أنجزت وراء الإنسان .

هبط مرة إلى القاهرة بعد غيبة طويلة ، فحمل إليه الهواء أصواتاً خشنة ، ونبرات متداخلة ونغمات مجروحة ، لم ينفر فتلك لغة الهواء ، لغة تحمل أنفاس الناس وهمومهم ، لغة هي منهم وإليهم ، خير من أن تستعير تشكيلات أخرى ، قد تكون رضية هنية ، ولكنها غريبه كأقنعة المسارح . واندماج في الأصوات الخشنة التي غاب عنها فترة طويلة ، وحمل إليه الهواء من بعيد نهيق حمار ، ونباح كلب ، وصياح ديك ، وبكاء طفل ، كانت الأصوات تتداخل وتحول إلى كتلة واحدة بفعل جاذبية عجيبة ، لم يعد يتبين خشونة الأصوات ولا تضاربيها ، بل وجد نفسه قريباً من روح واحدة تضم الجميع .

وفجأة سكنت كل هذه الأصوات وارتفع صوت المؤذن وحده يخترق الاثير ، ويمضي ومعه كل الأصوات نحو السماء ، لم يكن الصوت صوت مؤذن فرد ، بل كان صوت مجموعة من الأرواح الأثيرية تتراقص في الفضاء .

عند هذا الحد أدرك أنه لا يستطيع أن يمضي في تأملاته ، فقد أحس بشيء يتشكل داخله فطوح الأوراق ، وجر نفسه إلى فراشه متثاقلاً كام تنتظر المخاض .

رأى طائراً يحول في المنطقة ، لم يكن قد رآه من قبل ، ولكنه كان أليفاً إلى نفسه ، ليس مثله طائراً من طيور المنطقة ، وتذكر على الفور طائر "الكاه" ، لا يجد له نظيراً بين الطيور ولكنه يجده مرسوماً على جدران المعابد المصرية ، يقولون إنه يمثل روح الميت ، ويتلو الأهل الأدعية من كتاب الموتى المقدس ، حتى يعود هذا الروح إلى الجسد الهامد ، فينهض واقفاً من جديد .

وتذكر حديث البوذيين عن أن الروح لا تفنى ، إنها تخرج من الميت وتحول في المنطقة ، وتبحث عن الشخص الموعود لكي تحل فيه .

وتوالت عليه الذكريات من قريته ، كان الناس لا يحزنون من أجل الميت ، بل ينظرون إلى أولاده ، وكأنه قد ولد فيهم من جديد ويرددون "ما مات من خلف" ، وكانوا يحسون بروح الميت وهي ترفرف على الدار في المناسبات المختلفة ، تبارك نجاح الابن ، وتقدم التهئة للبنت .

وأحس وهو في مكانه بروح تحول في المنطقة ، يكاد يتحقق من ذلك وإن كان لا يستطيع أن يبرهن عليه ، أحسها قد تجمعت من أرواح الأجداد ، وأنها تتحول كل مساء إلى طائر ، يبحث عن الموعود ، ليتقمصه ويفضي إليه بالسر .

عند هذا الحد صاح : لا حياة لنا بدون هذا الروح ، لماذا تركه يهيم في المنطقة دون أن نقبض عليه ، هو طائرننا ، هو الذي سيعثنا ، نحن لا شرق ولا غرب ، بل نحن هذا الطائر .

ولا يدري لماذا تذكر من جديد كتابه "الوسطية العربية" ، ولماذا استشعر صوت وليده الأول ، وهو يشهق مستقبلاً الحياة .

أسرعت الأرض في دورانها ، تحولت إلى كرة صغيرة ، أُلقيت في جوف الفضاء ، فتفجرت شظايا .

توقفت أنفاسه ، وتفصّد عرقاً ، وأحس ببرد شديد .

نظر إلى أعلى ، فرآه طائراً يسد الأفق ، عرفه من الوهلة الأولى ركان بينهما رباطاً يمتد آلاف السنين ، كانت نظراته أليفة ، ولكنها عميقة ، تهتك ظاهر الجسد ، وتستقر في القلب مباشرة .

كان يقف في وسط السماء ، جناح يملأ الشرق ، وآخر يملأ الغرب ، ورأسه تقف بينهما منتصبه في اعتدال ، وكأنها قائمة الميزان .

كان هناك خلق صفر وسود يستظلون بجناحه الشرقي ، وكان هناك خلق حمر وبيض يستظلون بجناحه الغربي ، وهو منتصب يوزع ظله كالقسطاس المستقيم .

كان دائماً ينظر إلى أعلى في ثبات وترفع ، لعله لم يتنبه إلى بعض الصغار في جناحه الغربي ، يتسلون بنزع ريشه الملون ، ويصنعون منه وسائل ومراوح ، كان لا يأبه لهم ، فقط هو مشغول بالنظر إلى أعلى ، لعله كان يبحث عن شيء غائر بين النجوم .

كانت أجنحته تتحرك حركة خفيفة غير ملموسة ، ولكنها كانت متتالية ومتواصلة وسريعة ، كان واضحاً أنه يبذل جهداً خارقاً لكي يحفظ توازنه ، ولكنه لم يكن يشكو فقط كان ينظر إلى أعلى نظرات غير محددة لا تأبه للصغار .

نظرت إليه فأحسست بكبريائه ، ودعوت له بالثبات .

أخذ الطائر يملئ والراوي يكتب ، كان يستل المعنى من الأرواح الهائمة بين النجوم البعيدة ، ثم يلقيه إلى الراوي ، فيتفجر شظايا داخله ، كان الراوي يجمع تلك الشظايا ويحيلها إلى لغة مفهومة .

أحس الراوي بالمباهاة والتميز ، فقد تحول إلى وسيط تقمصته الأرواح الهائمة وكلفته بأن ينقل عنها ، كان الحرص يدفعه أحياناً إلى سرعة الأخذ عن الطائر فتضيع منه أشياء ، وتأتي العبارة في النهاية مبتورة .

ولكنه مع التكرار تعلم أن يضبط نفسه ، وأن يصبر على الواردات والتجليات ، وتذكر حينئذ مقام الجنيد رضي الله عنه ، فقد كان في أول أمره يرقص ويصيح ، ثم أصبح ساكناً ، ولما سئل عن ذلك ، تلا قوله تعالى ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرر السحاب﴾ .

برك ومستنقعات ، طين ووحل ، دخان وضباب ، اعجاز نخل منقعر ،
كائنات حلزونية هلامية ، تداخل بعضها في بعض ، لا يبين منها رأس من
ذنب .

ظهر رجل فتبدلت الطبيعة على التو . اصطفت الأشجار صفوفاً
صفوفاً ، صفوف النخيل ، صفوف السدر ، صفوف الأثل ، صفوف
السيبان ، تحركت الكائنات وتميزت ، وأصبحت لها أسماء .

تواردت على لسانه آيات بدء الخليقة في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إِنِّي أعلم ما لا
تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني
بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا
إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم
بأسمائهم قال ألم أقل لكم إِنِّي أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما
تبدون وما كنتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ﴾ .

وفهم السجود أكثر من معناه الظاهري ، إنه سجود لرمز العمل
والتعمير ، الكون غفل وحين يظهر الإنسان على المسرح يصبح لكل شيء
معنى ، وصاح لا وجود بدون الإنسان .

وتذكر قصة كان قد ترجمها لأن روبرج جريه ، الكون يبدو فيها في
حالاته الأولى ، كل شيء مختلط ومتداخل وبلا معنى ، وفجأة يظهر إنسان
وكانه ضال تسلط الشمس على عينيه ، فيبرش ويحجبها بيده ، ثم يولي
الكون ظهره ويعود ، يتركه بلا معنى كما استلمه بلا معنى ، وأدرك لماذا

تنمو الفلسفات العنثية في الحضارة الأوروبية ، إنها لا تحترم الإنسان ،
تساويه بمجدع الشجرة وبقطعة الوحل .

وتذكر أيضاً مجموعة من طلبته في الجامعة ، كانوا يتدافعون ويتصايحون :
الويل للكفرة ، الويل للزنادقة ، الويل لأهل الجاهلية ، وتبسم وأدرك : كم
هم سذج ، إنهم لم يفهموا المعنى الحقيقي وراء أمر الله للملائكة بالسجود
لآدم ، ولم يفهموا لماذا أذعن الملائكة أخيراً وبعد أن فهموا الحكمة
الإلهية ، فسجدوا كلهم أجمعون ، إلا من أزاغه الله .

وكان زراً قد أدير ، وإذا بآيات كثيرة تتوارد وكأنه يقرأها للمرة
الأولى ، آية من سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وثانية من سورة
المؤمنون ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ وثالثة من سورة الإنسان
﴿يَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ ، ورابعة من سورة التين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ .

عند هذا الحد سرت في جسده هزة ، كانت أكامام النخيل قد تفتحت ،
وأطل منها شموخ تفوح منه رائحة الحياة ، وانهمك جعران في حفر
الروث ، وشرع إنسان تحت النخيل يذيب زهر الحديد ويفرغ عليه قطراً .

أخذته سنة من النوم ، فرأى أبو العلاء يقف بين ورود صناعية ، بيضاء
لامعة ولكنها فارغة ، وحوله مجموعة من السحرة يحركون ثعابين من
فسيفساء وزئبق .

وكان ينشد داليتة :

غير محمد في ملتي واعتقادي	نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي إذا قيس	بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلکم الحمامة أم غنت	على فرع غصنها المياد

كانت في صوته حشجة وقسوة ، وتسرب إلى إحساس بالعبث ، البكاء
كالغناء ، والندير كالبشير وأخيراً الإنسان كالتراب ، كان هذا الإحساس
قريباً عارماً ، كاد يتحول إلى كابوس يأخذ بخناقني لولا أن أزحت الغطاء
وصحت إنها قصيدة تخلو من الدفء .

وظللت مسهدا لم أنم وأخذت أتذكر .

كان أبو العلاء قد حرم على نفسه اللحم والطيور واللبن ، كان لا يريد
أن يؤثر نفسه بشيء تحتاجه الحيوانات ، كان يحبها أكثر من نفسه ، وكان
أيضاً قد حرم على نفسه الزواج ، كان معادياً للحياة قست عليه فقسا
عليها .

وتذكرت حين كنت في أوروبا ، كان الناس يحنون على الكلاب يرتون
عليها ، يقدمون لها الحلوى ، والدواء والفراش ، كانوا يهدونها
كأطفال ، ويناغونها كزهور .

ووجدت نفسي لا أرتاح لنغمة أبي العلاء ، ولا أتقبل حنو الأوروبيين على الكلاب ، إن هنا شيئاً مفقوداً ، أبو العلاء لا يحب الحياة وإن كان يحب الحيوانات ، والأوروبي لا يحب جاره وإن كان يحنو على كلبه .

وتذكرت مسرحية كنت قد شاهدتها على المسرح القومي بلندن لا أذكر اسمها بالتحديد ، وكل ما أذكره أنها كانت عن هذا الجيل الذي شب خلال الحرب ، لقد فقد اليقين والحب ، وأخذ يعامل كل شيء بحساد وسطحية ، لا زلت أذكر تلك الممثلة الشابة ، ولا زلت أذكر جلستها وهي مرتخية بلا ميالة ، لا يبدو في نظرتها شيء ، سوى أن ترضي غرورها كامراً ، كل علاقة مع شاب تبدو سريعة ولا تعني شيئاً ، لا تفهم معنى الزواج ، ولا تفهم معنى الارتباط ، علاقتها مع أهلها لا تعني شيئاً ، كل شيء ينزلق تحت السطح سريعاً ، إنها تعيش كالقطة تجلس بجوار المدفأة ، تتمسح بصاحبها تلمس ربة حنان ، ثم تنام دون أحلام أو مستقبل .

وتذكرت بطل سارتر في روايته " الغثيان " كان يسخر من الاستقرار والنظام ، كان يضيق بسكان مدينته من الأسر البورجوازية ، يذهبون إلى أعمالهم ، ويركبون السيارات ، ويصاحبون الزوجات ، ويداعبون الأطفال ، وتساءل روكانتان بطل تلك الرواية ، ماذا يحدث لو أن هؤلاء قاموا في الصباح يفتحون الصنابير ، فإذا بهم يجدون الدماء تندفق بدلاً من المياه ، كان يتساءل ، عن ذلك وفي نبرته رغبة في أن تنقلب البيوت ، وتحطم الصنابير ، ويموت البورجوازيون . وكان سارتر يرى بذلك أنه يشير بفلسفة جديدة ، لا تستقر به إلى شيء ولا تهدأ إلى يقين ، كان يصف جيله بأنهم " مبحرون على ظهر سفينة " .

وكنا مجموعة من الشباب ، نجلس كل مساء على مقهى ريش ، كنا لا نزال نلوك أحداث ١٩٦٧ وكان حديثنا المفضل هو العبث ، نتنفس

العبث ، ونبشر بالعبث ، ونكتب عن العبث ، ونحتفي بالعبث ، ونرى ذلك
فلسفة جديدة ، ودلالة العصرية والتمرد .

وأذكر وقتها أنني رحت أترجم لكافكا ومارسيل بروست وإتيالو سفيفو
وآلان روب جرييه ، وأقدم كل ذلك في كتاب تحت عنوان " الأدب
وتجربة العبث " وكأنتي أقدم سفر الخلود .

ولم يخطر ببال أحد منا وقت ذلك أن عبث ما بين الحربين كانت له
ظروفه ، وأن عبث ما بعد ١٩٦٧ له ظروفه أيضاً ، وأن ما نسميه فلسفة
قد يكون ظاهرة مرضية ، وأن ما نسميه تمرداً قد يكون تشنجاً ، وأن ما
نسميه عصرية قد يكون نزوة .

عند هذا الحد صحت : كل شيء لا يصدر عن حب الإنسان ، فإن مآله
إلى الزوال ، حتى وإن تزى بأرقى الفلسفات .

أخذت سعفها تتراقص في أجواز الفضاء كأنها صلوات المتصوفة ،
والقمر يلقي وراءها غلالة بيضاء كالحليب المسكوب ، وظلها يفتش الرمل
الفضي ، ويتخلل حبيباته ، ويمتزج الأبيض مع الأسود ، كما يمتزج الخير
والشر ، والحياة والموت .

جلس إلى جذع النخلة يحادث نفسه ، إنه يحمل في يده ساعة
اليكترونية ، وفي جيبه جهاز تسجيل يديره ، فيسمع آلاف النغمات من
مختلف الأوركسترات ، وهناك في السيارة التي تركها بعيداً جهاز
تليفزيون ، يحركه فيشاهد أنواع الرقص ومختلف الحركات ، ولكن كل
ذلك يتضاءل أمام تلك اللحظة وهو يستند إلى جذع النخلة ، إن رقصات
ساقها في السماء تفوق رقصات بحيرة البجع ، وإن وشوشة سعفها في
الفضاء تفوق غناء الكورال في السيمفونية التاسعة ، وإن اللوحة التجريدية
التي رسمها ظلها فوق الرمال تفوق لوحات بيكاسو وسلفادور دالي . لقد
سمع الكثير في حياته ، وشاهد ، وقرأ ، وجرب ، وسافر ، ولكن كل هذا
يضيع في غمار تلك اللحظة الأثرية ، إنه يحس بوشيجة ما مع هذا النبات
الذي يضرب في أغوار التربة ، وتذكر قول الرسول ﷺ : " نعمت العمة
لكم النخلة " . إنه يحس الآن أن هذا الحديث شيء فوق المجاز والبيان ، إنه
يعبر عن صلة حقيقية مع هذا النبات أقوى من صلة الرحم ، إنها صلة
تفوق الرسم والرقص والغناء وسائر ما تهيئة الأجهزة الحديثة ، وتساءل :
هل الإنسان هو تلك الأشياء التي يعايشها في حياته ، يلبسها ، يأكلها ،
يشربها ، يستخدمها . قد يكون ذلك كذلك ، ولكن هناك أشياء أخرى
غير مرئية ، وتفعل فعلها أكثر مما تفعله حياته اليومية ، إن النخلة بالنسبة له

ليست نباتاً وظلاً ومتكأً وتمراً ، إنها أشياء غير مرئية ، إنها تاريخ ، يذكر يوم أن لجأت إليها مريم تبتغي الستر والعون ، ويوم أن لجأ إلى ظلها موسى يبتغي الفرج ، ويذكر عشرات الحكايات التي قرأها في كتب الجاحظ وأبي علي القالي وأبي الفرج الأصفهاني ، عن هؤلاء الذين يتوهون في الصحراء ، ثم تبرز لهم من بعيد نخلة تمدهم بالظل والتمر ، وتمسك عليهم الحياة .

وأمن في التساؤل وتذكر حديثاً آخر للرسول ﷺ ، يجعل النخلة هي مثال المسلم ، إنه لا ينطق عن الهوى ولا يكفي بمجرد ضرب المثل ، بل لعله يعني شيئاً أبعد من ذلك ، لعله يعني أنها رمز المسلم ، أو قل هي "تراث" المسلم .

عدل الرجل من جلسته ، وسرح الطرف مع السعف التي تتراقص ، وأخذ يتساءل ولكن ما هو التراث ، إن الكلمة قد أصبحت ككرة اللبان ، يعضفها كل كاتب وصحفي حتى فقدت قوامها ، وأصبح التعرف على هويتها شيئاً صعب المنال ، هل التراث هو ذلك الشيء الذي نجده في بطون الكتب وأروقة المساجد ، إن الكتب والمتاحف والخزائن هي مجرد "دالات" على التراث وحافظات له أما التراث فهو شيء غير مرئي ، تنفسه كالهواء ويتخللنا كالدماء ، إنه يذكر حين زار الأماكن المقدسة لأول مرة ، كان يتوق لرؤية جبل أحد ، ومسجد قباء ، وعرفات ومنى ، وزمزم ، إنها تعني أشياء كثيرة بالنسبة له ، يذكر في طفولته أن أقاربه كانوا يقولون له أيام العيد "على منى" ، وحين يتوضأ يقولون له "من زمزم" ، وحين يصلي يقولون له "حرماً" ، وحين زار تلك الأماكن التي كانت تعشش داخله ، لم يشاهد جبلاً شاهقة ، ولا أماكن مرتفعة ، ولكنه أخذ يتنسم الذكرى

في كل مكان ، وأصبح الهواء في مكة والمدينة وعرفات ومنى مشبعاً
بأنفاس الصحابة والتابعين ، إنه تراث يتنفسه في الهواء ويتخلله حتى
الدماء ، ليس حتماً أن يكون التراث أهرامات أو عجائب سبعاً ، قد يكون
شيئاً أثرياً تجردياً ينتقل من الآباء والأحفاد عبر النطف والأصلاب ، إنه لا
يعرف كم هو عمر تلك النخلة ولكنه يعرف أنها مثل الآلاف ، تنتشر في
المنطقة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، إنها ليست تفاحاً ولا برقوقاً ،
ولكنها شيء فوق التفاح والبرقوق ، إنها بالنسبة له عمته ومثاله ورمزه .
وجاءه أبوه في منامه وشق صدره ، وانتزع علقه سوداء وألقاها بعيداً ،
فاستيقظ خفيفاً وقد أذن القمر بالمغيب ، وخرجت القرصة والأرضة
والفيران من محاجرها ، وانخرط يصلي ركعتي الصبح دون وطاء أو غطاء ،
إنه لم يعد يخشى الهوام ولا الدواب ، الكل أصدقائه يعرف لغتهم ،
ويسبح معهم لخالق السموات والأرض .

هبت زوبعة في الصحراء ، حملت معها الغبار والتراب ، تطوحت النخلة وكادت تقتلع لولا جذورها الغائرة ، غاب القمر ، وعاثت الهوام ، وأصبحت الصحراء جحيماً لا يطاق .

أفاق الرجل من تأملاته ، دعك عينيه ، كان القمر بالأمس وردياً ، والنسيم عليلاً ، وكانت الذكريات جميلة عن التراث الذي يستنشقه في الهواء ، أما اليوم فقد تغير كل شيء ، إن دوام الحال من المحال ، وكل يوم هو في شأن ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، وتواردت عليه ذكريات من نوع جديد .

هل كل ما يحمله الهواء صالح للحياة ، وهل كل ما في التراث ينبغي أن يستنشقه الإنسان ؟

كان قد قرأ في كتب التاريخ عن حركات الزنادقة التي تكيد للإسلام باسم الإسلام ، وكان قد عرف أن الكثير من المذاهب الغريبة والوافدة قد تسربت إلى المسلمين وتزيت بزي الدين ، وكان يدرك أن كل ذلك قد تنهى إلى العامة ، فحسبوه من الدين ، واختلط في وجدانهم الزيف بالصحيح . وفهم أن هذا التراث الذي اختلط بعضه ببعض قد وقع تحت أيدي المستشرقين ، فحسبوه كله من الإسلام ، لم يريدوا أن ينقوه ، أو لم يستطيعوا ذلك حتى إن أراحوا ، كانوا قد تقولبوا بتلك القوالب التي تتخذ من وصف الظاهرة الخارجية منهجاً ، يحكمون من خلاله على الواقع ، دون أن ينقوا الزيف من الحقيقي والعرض من الجوهر ، إنه يذكر مثلاً ما قرأه لشبنجلر عن الحضارة الإسلامية إنه يصفها بأنها حضارة السحر ، التي تؤمن بالأرواح والجنات ، وتعتقد في قوة السحر وخوارق العادات .

كان بالأمس قد أدرك أن كلمة " التراث " قد لا كتبها الألسن ، حتى فقدت قوامها ، وأصبحت شيئاً هلامياً يصعب تحديده ، واليوم يدرك أن هذه الكلمة قد تعرضت لتداخلات كثيرة ، اختلط فيها الحابل بالنابل .

إن الأمر إذن يحتاج إلى بصيرة نافذة ، تخترق الحجب ، وتبين الأصيل من الدخيل .

إنه يذكر أن مُشركي قريش كانوا يتمسكون بسنة آبائهم ويزعمون أن هذا هو تراثهم الحقيقي ويذكر أن محمداً ﷺ قد استطاع أن يخترق الحجب وأن يكشف زيف ما يصنعون ، لقد أدرك بنفاذ بصيرته أن التراث الحقيقي للمنطقة قد حجب ، وسمي مشركي قريش بالكفار ، وهي كلمة مشتقة من الكفر بمعنى الستر والتغطية ، إنهم قد حججوا التراث الحقيقي بالعوادات والتقاليد وغطوا الفطرة بالزيف ، وأدرك ﷺ أن التراث الحقيقي لأمته إنما يتمثل في الوحدةانية ، وأن هذا التراث يضرب بجذوره إلى إبراهيم عليه السلام ، وقد حملته بعده إلى الجزيرة العربية ابنه اسماعيل ، وتلقاه منه الحفءاء ، الذين كانوا يتوارون وراء البيوت والدور ، يخشون قريشاً ، ويكفون بالعزلة والتنسك ، أدرك ﷺ أن تراث إبراهيم موجود في الأعماق ، فقط عليه أن يزيح الشوائب والأستار ، فسوف يتألق دين إبراهيم من جديد .

ولكن محمداً ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى ، بعد أن أعلن في حسم أنه خاتم النبيين ، وأن الوحي قد انقطع بموته ، فمن ذا الذي يحمل الأمانة من بعده ، ويتصدى للتمييز بين الزيف والصحيح ، وتذكر تفسيراً لإقبال ، كان قد استراح إليه حين قرأه في كتابه " تجديد التفكير الديني " وأن مبدأ ختم النبوة ، فيما يذكر إقبال ، يعني انتهاء عصر الوحي والمعجزات ، وبداية عصر العقل وربط الأسباب بالمسببات ، لقد توقف الوحي بعد أن

أرسى المبادئ ، وكان توقفه استنفاراً للعقل لكي يواصل المسيرة على هدى تلك المبادئ ، وتذكر حينئذ قول النبي ﷺ "العلماء ورثة الأنبياء" ، وأدرك بوضوح وظيفة العلماء في الحضارة الإسلامية ، إنها لا تكفي بمجرد اجترار المعلومات ، واختزان الذكريات ، إنها امتداد لوظيفة الأنبياء بعد انقطاع الرُوحى ، لا يهدعون ولا ينافقون ، يدخلون المعركة تلو المعركة ، حتى يستطيعوا أن يزيلوا الحجب والأستار الكثيفة ، وحتى يبرز الوجه الحقيقي للتراث ، نافضاً عنه التراب ، متطلعاً نحو الشرق .

وهدأت العاصفة في الخارج ، وهبت نسائم الشمال باردة فاترة ، وبدأت النخلة تعيد اتزانها من جديد ، وأخذت سعفها تراقص في الفضاء .

كانت الرياح محملة بحبوب اللقاح ، وزهور الحناء تبدو صفراء ناعمة تبعث منها رائحة مغرية ، وكانت هناك نخلة تحوم حول تلك الزهور ، وتمتص رحيقها في نهم ، وتحيله إلى عصارة جديدة ، وانبعث منها طنين متواصل ، يبعث النشاط ويحث على الحركة .

كان قد استراح تماماً لفكرة اقبال عن خاتم النبوة ، وأدرك أنها دعوة للعلماء ، لكي يواصلوا الطريق ، ويحملوا رسالة الأنبياء ، وتذكر من جديد الحديث الشريف " العلماء ورثة الأنبياء " ، وأحس بالمسئولية كما لم يحسها من قبل ، كان الرسول ﷺ يؤنس الوحي ، ويعدّه بالمشورة كلما حزه أمر ، أما العلماء فعليهم أن يواصلوا الطريق دون وحي ، ولم يدر لماذا أخذ يتلو الآية الكريمة ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ ، وأحس بالإشفاق ، ولكنه في الوقت نفسه أحس بأن على الإنسان أن يعي قدره ، فتلك هي الخطوة الحقيقية لمواصلة الطريق .

وعاود التفكير من جديد في قضية السحر ، وهبط عليه شيء كأنه الوحي ، وإذا به يدرك أن قضية السحر في الحضارة الإسلامية ، تدل على سعة أفق تلك الحضارة واستعدادها لتقبل الطارىء والجديد ، إنها تريد أن تخلص العقل من أسر القوالب العقلية التي يؤمن بها إيماناً مطلقاً فيألفها ويقع في وهمها ويستريح إلى الكسل ، ويصاب بالجمود ، إن المقولات العقلية تبدو مطلقة وغير قابلة للاعتراض ، وإذا حدث حوار حولها في فترة ما ، واجهه أصحاب العقل بالنفور ، إن فكرة الإيمان بخرق العادة تحت أي مسمى في الحضارة الإسلامية ، تعني تخلص العقل من وهم العادة ، إنها تريد أن تحولها إلى آلة حادة ، تلتقط الغريب ، وتقبل الخارق ، إنها بذلك تقف مع التطور ولا تقف ضد التطور .

وفهم لماذا لم يؤمن المعتزلة بالسحر ، بينما آمن به أهل السنة ، إن المعتزلة يمثلون أصحاب المقولات العقلية ، يجمدون عند تلك المقولات ، ويحاربون كل من يشك فيها ، أما أهل السنة فهم يفتحون الباب أمام احتمالات جديدة ، وإمكانات المستقبل ، وافترض لو أن المعتزلة ووجهوا بإمكانية الكثير من المخترعات الحديثة ، لعارضوا ذلك بشدة فهي أشياء غير معقولة ، تخرق العادة ، وتخالف المؤلف ، أما أهل السنة فقد يقولون باحتمال ذلك ، فكل شيء بأمر الله ، الذي يستطيع أن يوجد الأسباب بدون مسببات ، وأن يجمع بين المتناقضات متى ما أراد .

حينئذ أدرك الأمور بوضوح ، فقضية السحر في الحضارة الإسلامية ليست قضية إيمان بالأرواح والجنات ، إنها قضية المؤمن المستنير ، الذي يريد أن يدع العقل في حالة استنفار ، لتقبل الغرائب والمخترعات والجديد . وأخذ يقرأ آيات السحر في القرآن الكريم من جديد ، إنها لا تحمل ثقافة الإنسان الأول ، الذي يخشى الظواهر الطبيعية ، ويفترض فيها قوى خفية ، ولكنها تحمل قوة الإنسان المسلم ، الذي يواجه الواقع ، ويوجهه لمصلحته ، فالسحر موجود ولكن السحرة لا يستطيعون أن يضروا أحداً إلا بإذن الله ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ ، والسحر يعتقد به الناس ، ولكنه في نظر القرآن يمثل الزيف والخداع ، الذي لا يستطيع أن يصمد أمام الحقيقة والنور ، إن السحرة لم يستطيعوا أن يقفوا أمام عصا موسى فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وظل يفكر ويفكر ، ويفصل بين أمر وأمر ، حتى لاح خلف النخلة عمود من نور ، كان النور قوياً وملحاً ، أخذ يطارد غبش الفجر الكاذب ، وتناهى إليه من بعيد صوت ديك يهلهل للنور الجديد ، فحمد الله وقام يغتسل للصلاة .

ردد بالأمس دون أن يشعر قول الله تعالى ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ، كان المقام عصياً ، الرياح تهب ، الغبار يدمي العيون ، النخلة تفقد توازنها وتكاد تلتصق بالأرض ، فأخذ لسانه دون أن يشعر يردد هذه الآية الكريمة .

ورأته فكرة لمعت داخله كالشرر المتطاير ، لقد وجد نفسه وقت الأزمة يبحث عن شيء ثابت يتعلق به ، شيء يلعب دور خشبة الانقاذ ، فيحميه من الضياع والغرق ، وتوالت الأفكار ، وأدرك أن التراث يمثل "الثوابت" التي تحمي الأمة من الضياع ، وأدرك لماذا يزداد التشبث بالتراث وقت الأزمات .

ورأته فكرة الثوابت وأمعن فيها النظر ، وجدها تحمل خصوصية الحضارة ، فبدون ثوابت تصبح الحضارة شيئاً هلامياً لا معنى له ، الحضارة ، أية حضارة ، لا تستحق هذا الاسم إلا إذا كانت تحمل في داخلها بعض "الجينات" التي تميزها ، وتعطيها طابعاً خاصاً يظهر في أفكارها وفنها وموقفها من الحياة والكون .

وأدرك أن الثوابت في الوقت نفسه دعوة مفتوحة وتغري بالاجتهاد ، هناك ثوابت هذا حق ومطلوب ، وهناك اجتهاد فيما وراء الثوابت ، هناك قدر يمثل "ال قالب" الذي تقدمه الحضارة ، وهناك قدر آخر يصنعه الأفراد لتشكيل هذا القالب ، وتذكر حينئذ رأياً لإقبال كان قد ذكره في كتابه "جاويد نامه" ، إنه يرى أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، لا لأنه يقدم قوالب مطلقة وعامة ، بل لأنه يقدم قوالب متطورة ، تخضع للاجتهاد ، ولا تتعارض مع فطرة الإنسان ، وتبقى ما بقي التركيب البشري ، الذي يحمل في داخله الخير والشر معاً .

وتواردت عليه الأفكار ، إن فكرة الثوابت بهذا المعنى المزدوج ، الذي يحمل القالب وتشكيله ، يحمل الخصوصية والتغيير ، يحمل القاعدة والاجتهاد ، إن هذه الفكرة تضرب بجذور عميقة في الثقافة الإسلامية ، تذكر أن علماء التفسير يذكرون أن القرآن الكريم قد جاء عاماً يحتاج إلى تخصيص ، ومطلقاً يحتاج إلى تقييد ، وتذكر أن علماء السنة يقسمونها إلى سنة تشريعية تهدف إلى تقديم الحكم الشرعي ، وإلى سنة غير تشريعية جاءت من باب الأمور الدنيوية ، وأن الرسول ﷺ حينما قال لأصحابه في قصة تأبير النخل " أنتم أعلم بأمر دنياكم " ، إنما كان يوجههم إلى الاجتهاد في غير الأمور التشريعية ، وتذكر أن علماء الأصول يتحدثون عن أحكام قطعية لا تقبل الاجتهاد ، وأحكام وراء ذلك تستجيب للاجتهاد .

أخذت النخلة تمايل بشدة ، وتتطوح يميناً وشمالاً ، ولكنه كان مطمئناً ، لا يخشى عليها أن تقتلع فقد قرأ في القرآن الكريم أن أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وعرف من العلماء أن جذورها تغوص في التربة أكثر من متر ونصف بحثاً عن الماء .

كانت الجبال حوله كالحة ، وعلى ربوة قريبة ربض ريم لا يتحرك ،
وفجأة انطلق نحو الريم نصل سهم فأرداه قتيلاً ، لم يعرف مصدره ، ولكنه
لم يعجب له ، فقد كان يتوقعه ، ثارت الرياح ولطمت وجهه .

تذكر أبياتاً كثيرة من الشعر الجاهلي ، كلها تتوارد حول هذا المعنى ،
شيء كالسهم أو كالقدر الأعمى ، ينطلق نحو حيوان أو إنسان غافل
فيريده قتيلاً ، يموت الحيوان كالكلب دون أن يفقه شيئاً ، يقول ذلك امرؤ
القيس عن هذا القطيع الذي يبدو آمناً كعذارى دوار ، وفجأة يدهمه
الصائد فينتشر كالعقد المعزق ، ويقول له ليبد عن البقرة الوحشية التي تبحث
عن ابنها وفجأة يروعها وز الأنيس عن ظهر غيب ، ويقول له الحارث بن
حزرة عن النعامة التي يفزعها القناص عصراً وقد دنا الأمساء .

وبدا له أنه يفهم صورة السيل عند امرئ القيس وغيره من شعراء العصر
الجاهلي بطريقة أخرى ، إنه ليس صورة لسيل عادي ، وليس وصفاً تقريرياً
لطبيعة هائجة ، بل يكاد يكون رمزاً لقدر أعمى باطش ، يتحرك في طريقه
دون غاية ، يقتلع الأشجار ، ويدحرج الأحجار ، ويلطم الوجوه .

واستحضر أيضاً دون أن يتوقع نهاية رواية كان قد قرأها منذ مدة طويلة
لكافكا ، لعلها رواية "القضية" التي تنتهي في جو غامض ، ريح عابثة ،
وأضواء غامضة ، والنوافذ تصطفيق ، وفجأة يندفع سهم نحو البطل ، فيريده
قتيلاً وهو يصيح كالكلب .

وتساءل إذا كان ليل الجاهلية يحمل في تضاعيفه تباشير صباح جديد ،
فهل يحمل ليل كافكا وغيره من كتاب العبث إرهاباً بفجر جديد ، أو أن
الليل لا يزال طويلاً .

عندئذ نعت صوت غراب فوق النخلة ، وهبت ريح عاتية ، وتسلفت إلى
عينه قشة حادة ، فأصابته بالاحمرار وجعلته يفور .

كانت هناك حماسة بيضاء تتجه نحو المشرق ، كانت تعرف طريقها لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، وارتفع صوت المؤذن " الله أكبر " ، وتناهى إلى سمعه صوت الآلاف من جند الله ، يضعون السيوف ، ويريقون المياه على أيديهم وأرجلهم ، استعداداً للصلاة ، كان خريير المياه يختلط مع قعقة السيوف ، فيشكلان موسيقى صافية ، تتراعى في أجواز الصحراء الفسيحة الممتدة .

وصاح حقاً إنها معجزة ، وتذكر السهم الغامض ، ورثى لتلك النعمة المسكينة التي جاءها قدرها من حيث لا تحتسب ، وأنشد من جديد أشعار امرئ القيس وليبد وابن حلزة ، وتنهى : مساكين هؤلاء ، لقد عاشوا وماتوا كالكلاب الضالة ، كانوا ضحية قدر باطش لم يفهموه ولم يتجاوزوه .

واستحضر صورة الفرسان في العصر الجاهلي ، حقاً كانوا شجعان وأقوياء ، يواجهون الخطر ، يدخلون في معارك مع الطبيعة ، وينتصرون على الوحش وحيوانات الصحراء ، ويفتخرون أمام الحبيبة ببطولاتهم وفروسياتهم ، ولكنهم افتقدوا الغاية ، كان السهم الغامض يهددهم ، فوقعوا فريسة الخمر والنساء ، وتحرك لسانه بشعر لطرفة .

فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي
أ تلك هي غاية الحياة عند طرفة وأمثاله من فرسان العصر الجاهلي ، أن يعيش من أجل الخمر والقتال والنساء .

وصاح من جديد : حقاً إنها معجزة ، كان لا يزال صوت المؤذن وخريير المياه وقعقة السيوف تتناثر في رحبات الصحراء الممتدة ، لقد تبدل كل

شيء ، واختفى السهم الغامض ، وعرف الفرسان طريقهم ، إنهم ينطلقون في مشارق الأرض ومغاربها ، ليس بحثاً عن نعمة شاردة ، وليس حباً في أن يفخروا ببطولاتهم أمام الحبيبة ، ولكنهم انطلقوا وراء " الله أكبر " يرددونها في كل مكان ، لقد أصبح لهم هدف وغاية ، حقاً هم يؤمنون بالقدر ، ولكنه ليس قدراً أعمى كالسهم الطائش ، إنه قدر منضبط ، محكوم بسنة الله التي لا تبدل ، حقاً قد تخفي حكمة تلك السنة على بعض العقول القاصرة ، ولكنها أبداً لن تكون طائشة ، وتفهم حسرة رستم حين وجد المسلمين يصطفون للصلاة ، فصاح " أكل عمر كبدي إنما يعلم الكلاب الآداب " ، لقد أدرك هذا القائد موطن القوة ، وعرف أن عصر الضبط والربط قد بدأ .

وتحرك لسانه دون أن يشعر بآيات من القرآن الكريم ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ .

وأدرك المغزى الحقيقي وراء هذه الآيات ، إنها لا تقلل من قيمة الشعر والفن كما فهم بعض السذج ، بل إنها تقف ضد نوع من الفن المتخاذل ، يهدف في كل واد ، ولا يلتزم بالقيم الإنسانية ، ولا يدافع عن مضمون الكلمة ، أما ما عدا ذلك فإن سورة الشعراء تستثني الفن الملزم الذي يتعاقب فيه القول والفعل ، ويناضل فيه الإنسان من أجل قضيته .

ولم يطل به التفكير كثيراً هذه المرة ، إنه لم يعد يستعذب الجلسات الطويلة ، يقلب فيها الأفكار ، يفككها ثم يركبها ، وتساقطت عليه من النحلة ثمرة شهية ، فالتقطها ونهض يسعى في الأرض .

رأى قرية من بعيد ، تقف على قمة جبل متطرف ، كأنها معلقة بين السماء والأرض .

كانت هناك أشجار غريبة تحيط بالقرية ، تصدر منها رائحة مثملة ، وعليها فاكهة ناعمة الملمس ، كانت هناك بضع نحلات تطن طنيناً يخدر الأعصاب ، ومجموعة من الحمام تسكن فوق الأغصان ، وتستحم في أشعة الشمس الدافئة ، وتحفي رعوسها بين الزغب الناعم في لذة سرمدية . وهناك رهط يستحمون في برك حول الأشجار ، عرايا يشربون حتى الشمالة ويتبادلون الحديث حول النساء والطعام وأوز البحيرة ، لا يسألون بشيء سوى أن يستحموا في البرك ، ثم يتحادثون ، ويتحادثون .

تفرس فيهم فعراف أنهم شياطين الشعر ، وأدرك أنه في قرية من قرى الجان التي تنتشر فوق أطراف الجبال .

تعرف من بينهم على فتى جميل ممتشق القوام ، يلبس الألوان الزاهية ، ويضع فوق رأسه قلنسوة مزينة بريش الطيور ، كان يمضغ لبانة ، ويعب من كأس ويصيح " اليوم حمر وغداً أمر " فعراف في الحال أنه شيطان امرئ القيس .

تذكر مشهداً كان قد قرأه في مسرحية " مجنون ليلى " لأحمد شوقي ، تحدى شيطان قيس صاحبه إن كان يستطيع أن ينطق الشعر دون مساعدته ، لم يستطع الشاعر ، وتحول إلى غبي يكاد لا يبين .

عند هذا الحد صاح : مساكين هؤلاء الشعراء ، لا يصعدون عن أنفسهم ، هم خدم للشياطين والجان ، يلقون إليهم زخرف القول غروراً .

وأدرك أن شعراء الجاهلية قد فقدوا اليقين الداخلي ، يصغرون لشياطين

الشعر ، يهيمنون وراعيهم في كل واد ، يقولون مالا يفعلون أو ما الشياطين عليهم يملون . .

وعرف السبب الذي جعل جنة أبي العلاء تخلو من الشعراء ، كانوا يأتون حارس الجنة ، وينشلونه شعر المديح لكي يسمح لهم بالدخول ، فيأبى عليهم ذلك لأن جنة الآخرة لمن يستحقها ، لمن يحيل القول إلى عمل ، والكلمة إلى رصيد ، ولحظة الإبداع إلى حياة .

وأدرك أن الفن بلا عمل هو نوع من الخداع ، وأن الشعر بلا يقين هو من وحي الشياطين .

كان قد تحدث مرة مع صديقه عن السحر ، وأنه زيف لا يقف أمام عصي موسى ، واليوم يعرف أن الشعر إذا خلا من اليقين إنما هو نوع من السحر ، ولا يدري لماذا تذكر الحديث الشريف " إن من البيان لسحرا " ، ولماذا يحس إزائه بمعنى جديد لم يخطر له من قبل .

وأدرك تماماً مأساة الواقع العربي ، إنه يعيش في سحر الكلمة ، أزفت الأزفة ، واحتلت فلسطين ، وهدم المسجد الأقصى ، وعاثت في الأرض القردة والخنازير ، ولا شيء سوى الشعر ، وكأنه المادة المخدرة يتسلى بها عن الحقيقة ، ويتحصن بها ضد الواقع .

تمنى لو حلت مدينته من هؤلاء الشعراء ، تمنى لو رأى مدينته فاضلة مثل مدينة أفلاطون ، طرد منها الشعراء ، أو جعلهم يعيشون في زاوية قصية . عند هذا الحد رأى شهاباً رصداً ، ينقض على قرية الجبان فيحرقها ، ورأى الشعراء يتطايرون من كل جانب .

تمنى في سريره شهاباً كهذا ، أو قل عاصفة ، تنقض على قرى الجبان ، التي تنتشر الآن في أرجاء العالم العربي .

هبت نيران عاتية ، التهمت كل قرى الجان ، وانطلقت الشياطين إلى كل جانب ، وذبولها تشتعل بالنيران .

في غار حراء هبط جبريل إلى الأمين ، وغطه إلى صدره ثم أرسله ، وأمره أن يقرأ باسم ربه .

تجلت الحقيقة ، وتكشف السحر ، وتخرصت الألسن ، واختفت الشياطين .

توحدت الكلمة والفعل ، وحدثت المعجزة ، وتحول كل مسلم إلى شاعر يقول ويفعل ، يعيش لحظة الإبداع ثم لا يتركها وراءه ظهرياً ، بل يظل يصنع قصيدة في كل لحظة من لحظات حياته .

أدرك حينئذ أن الفن إذا التحم باليقين تحول إلى رسالة .

وسمع صرير أبواب الجنة تفتح لهؤلاء الشعراء ، وأحس أن مدينة فاضلة قد أخذت تتحقق .

لم تعد الجبال أمام عينيه كالحلة متجهمة ، لقد تبدلت ، كان صوت الشيخ محمد رفعت يتردد في جنباتها وهو يتلو ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ ، لم يكن صوتاً بشرياً ، بل كان صوتاً ملائكياً يذيب الأحجار ، يجعلها تتشقق ، وتنفجر بالمياه ، وتهبط من خشية الله ، يحرك الجبال الجامدة ويجعلها تمر مر السحاب ، وتذكر وقت أن تجلى الله على الجبل ، وخر موسى صعقاً .

وأدرك بوضوح معجزة القرآن الكريم ، إنه لم يقف عند المظهر الخارجي للصحراء ، الجبال الكالحة ، والرمال الساخنة ، والسحن المغيرة ، لقد أدرك الوجه الآخر للصحراء : نسيم الصبا ، خشوع الجبال ، تسييح الوحوش ، رائحة النباتات .

وأخذ يتلو القرآن الكريم ، ونزل على قلبه برداً وسلاماً ، وفاضت عينه بالدمع ، وتواردت على لسانه آيات من سور مختلفة ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ، ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ ، ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ ، ﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴾ .

وأحس بشعور لا يستطيع وصفه بالضبط ، لقد كان بالأمس محتاجاً تسللت إلى عينه قشة حادة ، فأصابتها بالاحمرار وجعلته يفرور ، والآن وعقب قراءته لهذه الآيات فإن قلبه مفعم بالرضا ، لعله شفاء الصدر الذي يتحدث عنه القرآن الكريم ، وتذكر كلاماً كان قد قرأه لابن الجوزية عن السكينة ، وأنها تنزل وقت الشدة والمحنة ، فقال لعلها السكينة أيضاً .

وأدرك أنه شيء لا يستطيع تحديده ، يند عن الاسم والتعريف ، ولكن يحس به كل قارئ للقرآن الكريم ، حتى لو لم يفهم معناه ، إنه يحس بهذا الشيء يتسلل إلى قلبه ، فيدرك أنه إزاء كلام لا يتكون من لغة وحروف مرصوصة ، بل من شيء كالماء أو الروح يسري خلال تلك اللغة والحروف ، وتذكر كلاماً كان قد قرأه لمسيمة الكذاب يقول فيه " ألم تر كيف فعل ربك بأهل الجبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاة وحشى " ، إن الرجل يجتهد وسعه في أن يجاري القرآن الكريم ، نفس اللغة والحروف والمعاني والفواصل وتقسيم الجملة ، ولكنها تبدو خالية من الروح تثير السخرية والضحك ، ينقصها ذلك الشيء الذي لا يستطيع أن يضع له اسماً ، وتذكر تعليقاً لأبي بكر الصديق حين سمع كلام مسيمة " ويحكم إن هذا لا يصدر عن آل " ، وصاح : لقد وجدت الاسم ، إنها روح القدس التي افتقدها أبو بكر رضي الله عنه في هذا الكلام ، وعرف لماذا أطلق الناس على مسيمة صفة الكذاب .

وهبطت على عينه حبيبات من برد ، كأنها المن والسلوى ، فأزالت احمرارها ، ونظر نحو هلال جديد ، يبرز في الأفق القريب ، ففاضت نفسه باليقين .

كان هناك هدهد يتقرب في الأرض ، بدت خطوطه الحمراء والبيضاء زاهية لامعة ، وتفتحت أكامام النخلة ، وبدأ منها بسر أحمر وأصفر ، يختلط باللون الأخضر .

وتفتحت نفسه بالبهجة والجمال ، وتوالت على خواطره آيات من القرآن الكريم ، تظهر الطبيعة وكأنها في مهرجان ، فالسمااء مرصعة بالكواكب زينة للناظرين ، والأرض فيها من كل زوج بهيج ، وأخذ يتلو ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين ﴾ ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أنمر وبنه ﴾ ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ﴾ ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ﴾ ﴿ فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ﴾ .

لم يعد يرى السماء رصاصية ثقيلة خرساء ، كما كان يقرأ في الروايات المصرية والمترجمة ، بل أصبح يطالع فيها دنيا بهيجة ، مزينة بالكواكب والمصابيح ، أصبح يراها ورده كالدهان ، تلتئم بمختلف الألوان .

وتذكر كلاماً لجيته أوردته في ديوانه الشرقي عن القرآن الكريم :

رأيت بدهشة وابتهـاج

ريشة طاووس بين صفحات القرآن

مرحباً بك في هذا المكان المقدس

أغلى كنز بين بدائع الأرض

وأخذ يكمل قصيدة جيته التي تحدث عن صور البهجة في القرآن الكريم ، وتمتم : قد يدرك الغريب ما لا يدركه القريب ، فالألفة حجاب قد تحول دون كشف الأسرار ، إلا من هداه الله .

وجاشت نفسه ، وأخذ يتلو سورة الرحمن ، يتنقل بين اللؤلؤ والمرجان ، والنخل ذات الأكمام والحب ذي العصف والريحان ، والخور الحسان ، والوردة التي كالدهان ، وجنى الجنتين دان ، وأخذ يهز الرأس كلما يكرر ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وواصل القراءة ، أصبحت الآيات في نهاية السورة تحدث عن الجنات ، آيات قصيرة ، وفواصل سريعة ، وأخذت التكرارات تتوالى ، والايقاع يرتفع ، والانفاس تلهث ، والرءوس تهتز ، ويروح ويحيى ، وهو يردد بلا انقطاع ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ، وما زال يردد ويكرر حتى غامت الرؤية وغاب في نشوة صوفية .

وتنبه من غفوته ووجد لسانه لا يزال يتحرك بالآية الأخيرة ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام ﴾ ، وهبط عليه شيء كالبرد ، ووجد نفسه ترتفع فوق كل الخلافات ، وأدرك حقيقة وهي أن الجواس يمكن أن تقود إلى الأعلى ، وأن تفتح طاقات إلى السماء ، إن سورة الرحمن تقدم أوصافاً حسية للجنتين ، ولكن هذه الأوصاف ترق وتشف ، ويحيطها جو

من نسائم الرحمن ، حتى تجعل المرء يغيب في نشوة صوفية ، وتغم : حقاً ،
إن سورة الرحمن هي عروس القرآن ، كما يقول المفسرون ، ولكنها في
الوقت نفسه سياحة صوفية ، جريها بنفسه وهو يكرر ويعيد ﴿فَبَإِي آلاءِ
ربكما تكذبان﴾ .

وتوصل إلى يقين من وظيفة الحواس في العملية الفنية ، إنها وظيفة
متكاملة ، تبدأ من الحواس وترتفع بها إلى جو من الجمال ، دون أن يغيب
الأمران ، ورثي لهؤلاء الأدباء الذين يقفون عند الوظيفة الحسية لا
يغادرونها ، ورثي أكثر لهؤلاء الذين يتحدثون عن صوفية " لورانس " ،
فقد أدرك بعد أن عاد من سياحته أنها صوفية لا تختلف عن الهزة الجنسية ،
وأنها لا تختلف أيضاً عن غيبوبة العقاقير والشراب ، إن وظيفة الأدب
المكتشف حتى في أحسن صوره عند لورانس ، هو تفخيم الوظيفة الدنيوية
للحواس ، فتبدو اللذة وكأنها لذتان ، أما الوظيفة العليا فلها شأن أي
شأن ، ﴿فَبَإِي آلاءِ ربكما تكذبان﴾ .

ورفع عينيه إلى النخلة ، كانت لا تزال تتمايس بسباطها الجميلة ،
وحولها ألوان من قوس قزح يشق عنان السماء ، كان هناك هلال وليد
يزغ في الأفق ، وتذكر تهليل الرسول ﷺ وفرحته حين كان يرى الهلال
الجديد ، وأخذ يردد الحديث الشريف : " حُبَّ إِلَهِي مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثُ :
النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " . ولم يجد غرابة في أن يجمع
الرسول ﷺ بين النساء والصلاة . فقام يتخلص من غدة الشيطان ، ثم
اغتسل واستقبل الصلاة بقلب سليم .

سحب تركض في السماء ، تبسط تحتها ظلالاً سوداء ، تتحرك هذه الظلال فوق الرمال البيضاء ، كأنها الوعول المنقطة ، انبثقت مجموعة من الخيل تتدافع وتتداخل ﴿ والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا ﴾ .

وتذكر قصة كان قد ترجمها جريليه ، تحت عنوان " الطريق الخاطيء " . إن جريليه هنا يرصد بحياء حركة الضوء والظلال فوق البركة والأشجار ، ويشبهها بلوحة الشطرنج ، دون أن يعلق أو يحمل الطبيعة قيمة إنسانية ، حتى الرجل الذي يظهر فجأة " يلقي نظرة باردة ، ثم يعود فقد اكتشف أن الطريق خاطيء " .

أما حركة الخيول أول سورة العاديات ، فإنه يحسها متحركة هادفة متطلعة للمستقبل ، إنها ليست مجرد قسم بأشياء نافعة ومحبوبة كما يقول النحاة ، إنها تحمل الاستنفار ، إنها تتطلع للمستقبل وقد امتطى المجاهدون خيولهم يبشرون بكلمة الله ويغيرون على الأعداء ، إن الخيول هنا ليست مجرد خيول ، بل هي خيول المستقبل والعزم والتصميم ، تقدح الشرر ، وتثير النقع ، وتصبح الأعداء .

وأدرك الفرق بين حركة وحركة .

حركة حاوية كقطع الشطرنج عند جريليه تنتهي به إلى العبث ، أو كجبل نيتشه المتوتر ينتهي به إلى الانتحار .

وحركة هادفة ، تبشر بالعميدة ، وتثير العزم والتصميم والتطلع .

ذلك هو رقص الروح ، وهذا هو الرقص على سطح من الصفيح

الساخن .

ونذكر أن " رقص الروح " إنما هو تعبير كان قد قرأه لإقبال في رسالة الخلود ، يوصي به ابنه ويراه سر دين المصطفى .

وتذكر أيضاً أن " الرقص على سطح من الصفيح الساخن " إنما هو عنوان لفيلم أمريكي كان قد رأى إعلانه على الجوائط ، وتبدو فيه ممثلة شبه عارية ، تتلوى كالقطة ، وتخلو عيناها من التعبير .

وأدرك لماذا انتهت الجملة عند إقبال بقيام دولة واحتضان حضارة . ولماذا أنهت صاحبة الفيلم حياتها بالانتحار .

ثم صاح : كم نحن في حاجة إلى رقص الروح .

تطلع نحو الأفق ، كانت السحب لا تزال تركض ، ولكنها كانت بعيدة ، لم ير منها سوى الظلال تتحرك فوق الرمال البيضاء ، كحبة رقطاء.

ولكن فجأة داهمته صورة الخيول من جديد ، وهي تعدو ، تضرب الأرض ، تقدح الشر ، تثير النقع ، تهاجم الأعداء ، تدوس الحية الرقطاء . عندئذ أحس بالخفة ، ثم ارتفع إلى السماء ، يركض مع السحاب ، يستعجل الصباح .

كانت النار من بعيد تبدو متوهجة ، تتصاعد ألسنتها في أجواء السماء ، فتبدد وحشة الصحراء .

تذكر قصة موسى عليه السلام ، كان قوياً يصفع ويبطش ويقتل وكان ضالاً تائهاً في الصحراء ، حتى بدت له من بعيد نار ، فيمم نحوها يلمس الدفء أو الهدى .

عندئذ صهرته تلك النار، وبذلت عنقه إلى ثبات ، وقلقه إلى يقين ، وانزعاجه إلى سكينه .

وتذكر قصة عمر رضي الله عنه ، كان غاضباً مهتاجاً ، فقد سمع لئوه أن أخته قد أسلمت وأنها في دارها تقرأ القرآن مع زوجها ، فتوجه نحوهما . صفع الزوج ، وعنف الأخت ، ثم أخذ المصحف ففتحه فكانت أمامه سورة طه ، فجعل يقرأ ﴿ وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً . فقال لأهله امكثوا . إني آنست ناراً . لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودي يا موسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إني بالوادي المقدس طوى ﴾ .

عندئذ صهرته تلك النار ، وحولت عنقه إلى سكينه ، وغيظه إلى رقة ، وكفره إلى إسلام .

وتساءل : مست النار المقدسة موسى عليه السلام ، فوقف أمام فرعون ثابتاً ، لا يخشى صولته ولا جولته .

ومست تلك النار عمر رضي الله عنه ، فجابته المشركين : من أراد أن تشكله أمه ، فليتبني وراء هذا الوادي .

ثم تحرك من مكانه وهو يقول : من لي بمثل تلك النار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③
 وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
 فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجْعَلْكَ يَتِيمًا فَتَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
 فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨
 وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪

كلما يقرأ سورة الضحى يحس باليقين ، كأنه ذلك الرجل الذي قد ضل طريقه في صحراء قاحلة ، اشتد عليه الغيظ ، واشتعلت تحته الرمال ، وكاد يموت ، لولا أن تساقطت عليه حبات برد من السماء فأنعشته .

واستحضر صورة النبي ﷺ ، انقطع عنه الوحي فترة ، فقلق عليه السلام وكان ينظر كل حين إلى السماء ، ينتظر الوحي ، حتى نزلت عليه هذه السورة ، فجددت عنده الأمل .

كلما يقرأ هذه السورة يحس بأنه يرتفع إلى السماء ، وأن قلبه قد اتسع لحب العالمين ، فلا حقد ولا حسد ولا بغضاء .

وكلما يقرأ هذه السورة يحس بالنشوة والانتصار ، لم يعد يأبه بالعقبات فإنها تستصهره ، ولم يعد يخشى المحن فإنها ستصقل قلبه ، وتستخرج أنقى ما فيه .

وكلما يقرأ هذه السورة يحس بالنعاس الذي غشى المسلمين في إحدى غزواتهم فجدد نشاطهم ، وبالمطر الذي هطل عليهم فطهرهم ، وبالملائكة التي كانت بينهم فأمدتهم بالنصر .

وكلما يقرأ هذه السورة يحس بيد أمه تربت عليه عقب حلم مزعج ، وببسمه والده عقب نجاح العملية .

كلما يقرأ هذه السورة ، يستحضر ضوء الضحى ، يفتersh طرقات القرية كالحليب المسكوب ، ليس هو نوراً يغمر الأبصار ، وليس هو ظلمة تغشى العيون .

كلما يقرأ هذه السورة يحس بنسمات تهب في يوم قائف وتولد في نفسه حالة جديدة ، وبجبات من البرد تسقط في يوم حار فتولد حالة جديدة ،

وبصباح يشرق اثر كوابيس الليل فيولد حالة جديدة ، وبانتصار عقب
هزيمة فيولد حالة جديدة .

وحاول أن يجد اسماً دقيقاً لهذه الحالة الجديدة ففشل ، ولكنه تذكر
كلاماً لابن الجوزية عن السكينة التي تهبط على القلوب في مواضع القلق
والاضطراب ، كيوم الهجرة إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق
رءوسهم.

حينئذ صاح : لعلها السكينة .

كان طائرته لا يزال يملئ ، يتحرك جناحاه حركة غير ملموسة ، ورأسه
تقف بينهما في ثبات كقائمة الميزان .

كان الوقت ضحي والضوء لا هو غامر باهر ، ولا هو خافت باهت .
ظهر الطائر في منتصف السماء ، طالت أرجله حتى انغرزت في الأرض ،
وارتفعت رأسه حتى جاوزت السحاب .

خلق سود قد تراحوا على الجناح الشرقي فبدأ أسود ، وخلق بيض
تعلقوا بالجناح الغربي فبدأ أبيض .

كان المنظر بديعاً والطائر يحرك جناحه الأسود يتجاور مع الأبيض كما
الليل والنهار في وقت واحد ، من عجيب لم يحس أن في الأمر تضاداً ، بل
بالعكس أحس أن اللوحة قد تكاملت .

وتذكر على الفور صورة الملك الذي التقى به النبي ﷺ ليلة معراجة كان
نصفه من ثلج ونصفه الآخر من نار ، لا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب
الثلج .

نظر خلف الطائر ، فوجد صحراء شاسعة ، كانت هناك نخلة تقف
وسط الصحراء ، الوقت حار وظل النخلة يفترش الصحراء ، ويتحرك فوق
الرمال البيضاء ، أحس بإحساسين في وقت واحد ، الجمال والجلال ،
الخوف والأمن ، ولكنه لم يشعر بالتناقض .

كان الموقف أكبر مما يستطيع أن يعبر عنه ، تمنى في تلك اللحظة أن
يكون فناً تشكلياً يستطيع أن يرسم لوحه يتجاور فيها الأبيض والأسود ،
الليل والنهار ، الظل والضوء ، دون أن يحس المشاهد أن في الأمر تناقضاً أو
تضاداً أو شيئاً من الغرابة .

أنقذه من حيرته آيات من سورة آل عمران ﴿ تولج الليل في النهار ،
وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ،
وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ .
أحسن باليقين ، وعرف أن إعجاز القرآن يكمن أيضاً في التعبير عن روح
المكان .

دنا منه الطائر كثيراً ، غطه إلى صدره ثم أرسله ، ألقى إليه ببعض
الأغزاز ، يختبر بها حسن حظه وعاقبة أمره .

اللغز الأول

شيء برأسين ، ويرفرف في الجانبين ، ويحوز الحسنيين .

تذكر على الفور صورة المؤمن ، كما وردت في حديث نبوي ، ينظر بأربع أعين ، عينين في قلبه يبصر بهما أمر دينه ، وعينين في رأسه ينظر بهما أمر دنياه .

وتذكر أيضاً صورة النخلة ، تجمع بين السماء والأرض ، وردد التعبير القرآني ﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ .

وحمد الله على أن وفقه في كتاب " الوسطية العربية " ، وجعله يتخذ من النخلة رمزاً لتلك الطبيعة التي تجمع بين الأمرين .

ورد الحديث النبوي " نعمت العمة لكم النخلة " ، وأدرك أن الأمر لا يقف عند مجرد صورة بيانية ، بقدر ما هو يضرب إلى حقيقة جوهريّة . حيثنّ عزم على أن يكون صورة من النخلة ، جذورها غائرة في التربة ، وفروعها تتراقص مع تيارات الهواء . وبدأ اللغز يتكشف داخله .

اللغز الثاني

العبرة في النهاية بالعصارة ، دونما نظر إلى النشارة .

توارد إلى ذهنه كلام لابن الجوزية عن الوسطية ، يراها تتبع الحق فتأخذه ولو كان عند الفرق الضالة .

وتذكر التعبير النبوي عن أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى كانت .
حيث عزم على أن يكون قوياً ، لا يخشى التيارات المعادية ، ولا يقف منها موقف التوجس ، سيحاورها ويلتقط أفضل ما عندها ، فالعبرة بالنهاية . وأخذ اللغز يتضح داخله .

اللفز الثالث

هو حاكم ومحكوم ، ولكل منهما مقام معلوم ، لا يتجاوز ما
هو مرسوم .

تحرك لسانه بالآية الكريمة ﴿ وهو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ .
وأحس أن في داخله بحرين يتعايشان ، ملك وشيطان ، خير وشر ، شهوة وحكمة ، فسأل الله وضوح الرؤية .
وتذكر من جديد صورة الميزان ، كان قد اتخذ رمزاً في كتابه " الوسطية العربية " ، يعادل به بين التيارات المختلفة والمتضاربة .
عزم على أن يكون في حياته كالمسطاس المستقيم ، لا يجعل كفة تطغى على كفة ، ولا بحراً يبغي على بحر .
وتكشفت له حقيقة اللغز .

عند هذا الحد صاح في نشوة فوز :-

عرفت اللغز ، إنه الوسطية العربية .

♦ تحوز الدنيا والدين .

♦ تجري وراء الحقيقة .

♦ لا تجعل مقاماً يطغى على مقام .

صاح ديك فعرف من صوته أن الفجر الصادق قد أطل . كان صوته قوياً منتشراً ، يتزايد دون أن يتراجع فعرف أنها الحقيقة ، كان هناك عمود من نور ، قوي وواضح ، يخترق الظلام ، كان رقيقاً كالسهم ولكنه كان حاداً ، يشق الظلام ، فيفصله عن النور .

كان اللغز الثالث أشق الألغاز على نفسه .

أن تحتفظ بالمقامين دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، أمر يحتاج إلى فطنة .

وأن تكون فرق المقامين معاً ، أمر يحتاج إلى قوة .

وأن تحتفظ بالحركة بين المقامين ، أمر يحتاج إلى توازن .

و ألا تخدع بالفجر الكاذب ، أمر يحتاج إلى توفيق .

تذكر الصراط المستقيم الذي يمر عليه الخلق يوم القيامة ، وأنه أحد من السيف وأرق من الشعرة ، وأحس أن اللغز الثالث لا يقل في دقته وحرجه عن هذا الصراط المستقيم .

وتذكر أيضاً ذلك الطائر الذي يقف في منتصف السماء ، جناحان قريان ، يتحركان حركة واحدة ، ويخفقان خفقة واحدة ، ورأس بينهما كقائم الميزان تحفظه من السقوط .

كان صوت الديك لا يزال قوياً ملحاً يضرب في أغوار الليل ، وكان عمود النور لا يزال يخترق فلول الظلام ، وكان صاحبنا قد أحس برجفة شديدة بعد أن حل اللغز الثالث ، فقام يحتضن الكون بظلامه ونوره دون أن يحس بالتناقض ، فهو أقوى من كل شيء .

كان يظن أن طائرته سوف ينجر صريعاً عقب اكتشافه للغز .

ولكن وحده ينظر إليه في سعادة وحنو ويمد إليه يده .

عرف أنه لم يبرأ بعد من مضغة الشيطان ، وأن الأسطورة الإغريقية عن " أبي الهول " الذي يطرح الألباز لا زالت تعيش داخله .

كان أبو الهول يلقي للغز ، فإذا عجز الإنسان عن حله قتله .

وحدث أن " أوديب " قد فك اللغز فسقط أبو الهول تحت قدميه صريعاً .

أدرك في تلك اللحظة أن هذه الأسطورة تعبر عن روح صراع بين الكون والإنسان ، فالمرء إما قاتل أو مقتول .

كان الطائر لا يزال ينظر إليه في سعادة وحنو ، ويمد إليه يده .

أدرك أنه يعيش في منطقة أخرى وأن عليه أن يبرأ من بقايا الشيطان .

هنا تتصالح الأشياء ، يحب المرء الطبيعة ، وينظر الطائر إلى الإنسان نظرة السعادة والحنان .

هنا لا قاتل ولا مقتول ، الكل تحت رعاية الله .

لم يعد يستغرب صورة الثلج مع الماء دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، ولا صورة البحرين اللذين يتعايشان دون أن يغني أحدهما على الآخر .

لم يعد يشعر حتى بالغرابة في ذلك ، فكل شيء مرهون بأمر الله .

كان الطائر يمد إليه يده ويشير إليه بأن يتبعه .
وجد نفسه يخف ويشف ويتحول إلى طائر .
انطلق قوياً في السماء ، كصاروخ يخرج وراءه سحباً من نور .
تحول إلى كوكب لامع ، يقف في وسط السماء ، يشع نوراً في الشرق
والغرب ، نور على نور .
رأى الناس تشير إليه بالبنان ، وسمع الجدات ينشدن قصته للأطفال .
فأحس أن سفر النصر قد بلغ تمامه .

في لحظة خاطفة كالمعجزة أدرك السبب والنتيجة معاً .

في لحظة خاطفة كالإلهام ، تكشف له الآية الكريمة ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ ، عن طاقات من الإشراف والتحليلات .

أحس أن العقل العلمي بمنهج المعهودة ، بطيء الخطوات ، لا بد أن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ، ومن سبب إلى مسبب ، لا بد من طريق طويل حتى يصل إلى الغاية .

لم يعد الآن وهو كوكب في منتصف السماء ، في حاجة إلى هذا الطريق الطويل أصبح يدرك كل شيء في لحظة خاطفة كالمعجزة .

رأى الناس في الشرق والغرب تشير إليه وهو في مكانه وسط السماء ، يتخذونه علامة على الطريق الصحيح ، أهل الشرق يسترشدون به ، وأهل الغرب يسترشدون به ، يجتمعون عليه وإن تفرقت بهم السبل .

فعرف أنه قد تحول إلى نموذج ، وتفتحت له الآية الكريمة عن تحليلات كثيرة ، لم يعد في حاجة إلى أن يكرر ما ذكره في كتابه "الوسطية العربية" ، عن معنى الوسطية ولا عن معنى الشهادة ، أصبح يقع كل ذلك في قلبه في لحظة واحدة ، يتحد فيها الدال والمدلول ، وفي لغة تختصر الخطوات الطويلة والمتأنية .

لم يعد يشعر بالغرور والكبرياء .

اختفت تلك اللغة من قاموسه .

يكفيه أنه في منتصف السماء ، وأنه يضيء الشرق والغرب ، وأن الناس تستشهد به على الطريق الصحيح .

لا يبحث عن السبب فهو يعيشه ، ولا يشعر بالغرور ، فقد اختفت منه
الذات ، واندجحت في الكل.

تحول إلى طائر يحول في سماء المنطقة ، يبحث عن الموعود .
وتحول إلى كوكب لامع يضيء الشرق والغرب معاً .
وأشرقت الأرض بنور ربها .

تمت كلمة الله

" والله ليتمن هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من
صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على
غنمه " (البخاري ي - ٢٠٠ / ٤) .

من مرقبه وهو وسط السماء :-

ورأى نفسه وهو يجلس في موسم الحج ، كان بجانبه تركي يحادثه
و كأنهما صديقان قديمان ، كان يصغي إلى لغته العربية وهو يحمل المصحف
الشريف ، وكأنه يستمع إلى ترانيم صلوات .

ورأى نفسه وهو في جيوتي ، يجلس مع أسرة يمنية ، كانت تتحدث
معه ذون تحفظ وتقدم له من فواكه بستاتها ، حتى إذا أقبل جندي
فرنسي ، انكمشت على نفسها ، وتغيرت لهجتها .

ورأى نفسه وهو في لندن بين الأسر الباكستانية ، في شقة منزوية ، كتب
عليها باللغة العربية "مسجد" ، كانوا يتحلقون حوله ، ويقدمونه للصلاة ،
ويدلونهم على الأماكن التي تقدم اللحم الحلال .

ورأى نفسه وهو في نيجيريا ، كان اليوم يوم الجمعة ، الجميع يلبسون
الأبيض ، ويذهبون إلى المسجد ، وكأنهم في موسم الحج ، كان الخطيب
يخطب بلغة الهرسا ، ثم يعيد الخطبة باللغة العربية ، فأحس بالامتلاء ،
وبأن الناس ينظرون إليه بإعجاب .

ورأى نفسه وهو في شانغهاي ، وحوله خمسة من طلبته الصينيين ،
يتهتهون باللغة العربية ويطلبون منه أن يقوم نطقهم .

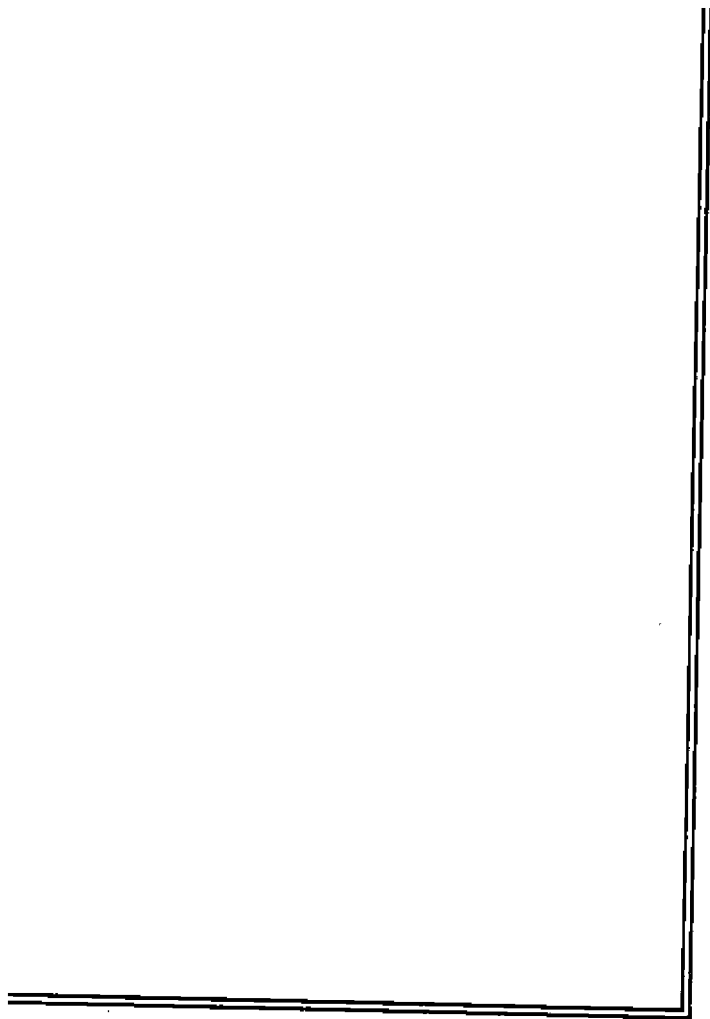
ورأى نفسه في قصر الحمراء بقرطبة ، ومرافقه الأسباني يحل له الأشعار
العربية ، المكتوبة على الجدران ، ويشير إلى الفسقيات والفسيفساء .

ووجد نفسه أخيراً تصبح : أينما أتوجه أجد الرفيق ، وتزول عني وحشة
الطريق ، في الشرق وفي الغرب أجد من يتفهم إشاراتي ، وينتظر كلامي .

وأعاد تلارة الحديث النبوي من جديد ، وأحس باليقين ولم يعد يخشى
الذئاب ، فقد " تمت كلمة الله " .

وكان هذا هو العنوان الذي اختاره للحديث النبوي .

سفر الكرب



THE UNIVERSITY OF CHICAGO PRESS

كانت الشمس تجنح نحو الغروب ، والظلال تمتد في الأفق الشرقي .
نظر إلى طائره فوجده قد أحس بالإجهاد ، وفقد توازنه ومال نحو
الغرب .

لاحظ أن جناحه الغربي كان خالياً من الريش تقريباً ، ولمح آثار دماء قد
تجمعت حولها بعض الهوام والحشرات .

ولأمر ما تذكر ما قاله في نهاية مقدمة كتابه "الوسطية العربية" ،
"الوسطية العربية تشبه صقراً ، يتمتع بجناحين قويين ، يحفظان توازنه في
السماء ، فإن اهتز الجناحان أو أحدهما ، اختل التوازن ، وسقط على
الأرض فريسةً للهوام والدواب" .

كانت الشمس قد اختفت تماماً ، ولا يزال طائره ينظر إلى أعلى ، ولا
يأبه للصغار ولا يعبأ بما يدور حوله .

كان صوت الديك ضعيفاً متردداً ، فعرف للتو أنه الفجر الكاذب ، وأن عليه أن يلزم فراشه . وكان الأفق يتحرك بأضواء غير واضحة كأنها الأشباح المعروقة .

جاءه من بعيد صوت مؤذن أجش ، لم يهتز لنداءاته ، ولم يستشعر نحوه بالسكينة ، تذكر أن الرسول ﷺ قد حذر من صباح بعض المؤذنين ، الذين يراعون الناس بهزيع من الليل ، وقبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

ثم قال في نفسه : هؤلاء هم المراءون ، وهذا هو الفجر الكاذب ، وهذا هو هزيع الليل .

كان اللغز الثالث أقوى من أن يحتمله ، وكان الإجهاد قد بدا على طائره ، اختلت أجنحته ومالت رأسه .

وأدرك أن حل اللغز الثالث لم يكن بذكائه ولا اجتهداه ولا حتى بعمله ، ولكن بتوفيق من الله .

وأحسن أن كلمة " التوفيق " فوق طاقاته وحساباته البشرية .

قد يعمل عمل أهل الجنة ثم يكون من أصحاب النار .

وقد يعمل عمل أهل النار ثم يكون من أصحاب الجنة .

هاجمته الحسيرة ، وتكاثفت عليه الأغاز ، ووجد أن النوم هو خير

الحلول ، فاستسلم لنعاس طويل .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③

قرأ سورة النصر فأحس بالانقباض ، استشعر ابن عباس رضي الله عنه أنها تنعي لهم رسول الله ﷺ استصوب الرسول رأيته وقال عنه " لقد أوتي هذا الغلام علماً كثيراً " ، سموها سورة التوديع ، فقد كانت هي آخر ما نزل من القرآن الكريم .

أدى ﷺ الرسالة ، وبلغ الأمانة ، وبقي عليه أن ينتظر لقاء ربه ، وقال لأصحابه عقب نزول هذه السورة " إن عبداً قد خيره الله بين الدنيا وبين لقاءه والآخره ، فاختار لقاء الله " .

ولم يمض على نزولها أكثر من سبعين يوماً ، حتى لحق بالرفيق الأعلى . قام من مكانه وهو يلوح بيديه في كل جانب ، وكأنه يطارد أعداء قد تجمعت حواليه .

لا يدري لماذا يحس بنبرة الإشفاق في دعاء الرسول ﷺ " يا مقلب
القلوب ثبت قلبي على دينك " ، ولا يدري لماذا كان ﷺ يلح على أصحابه
أن يرددوا هذا الدعاء كل صباح ومساء .

وكل ما يدريه أن عمر رضي الله عنه قد استشعر الإشفاق نفسه ، حين
رأى أن الإسلام قد بزل وكمل ، وماذا بعد الكمال إلا النقصان .

يبدو على القمر علامات الندوب ، وتكسر في بعض أجزائه ، كان
الهواء كثيفاً خانقاً ، وظلال النخيل تسد الأفق .

كان يقرأ في مقدمة ابن خلدون ، فأحس أنه يرثي الحضارة الإسلامية ،
يتحدث عن أن الملك إذا بلغ الكمال ، يؤذن بالزوال ، كان يفوح في
حديثه رائحة البكاء بين الأطلال ويردد : تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله
تبديلاً ، تلك الأيام نداولها بين الناس ، وقل اللهم مالك الملك تؤتي الملك
من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء .

تسربت إلى نفسه نبرة الرثاء ، وكان القمر قد اختفى في السماء .

موال صعيدي

حكمت ع السبع راح للكلب حد الكوم
لما صحي الكلب جال لو السبع صح النوم
أنا أسألك يا رب يا مجري بحر العموم
ترجع السبع يخطر زي عاداته
وترجع الكلب ينبش في تراب الكوم

كاريكاتير مصري

محدث عارف يكلمه ... أصل
عقبال أملك بدلتة .. مزيتة !



بيريشة عمرو محمد فهمي
مدرسة الناصرية - الاسكندرية

الأخبار في ٨/٤/١٩٨٨

إحصائية

ومع أن الأمة العربية تنتج حالياً ما يعادل ١٨ مليون برميل في اليوم من إنتاج العالم البالغ ٥٢ مليون برميل في اليوم الواحد فإنها لا تكرر أكثر من ٣,٥٪ من طاقة العالم على التكرير ، والنفط العربي يصدر إلى المناطق الآتية :

- ١- أوروبا الغربية وتأخذ ٤٩٧,٥ مليون طن في العام .
- ٢- اليابان وتأخذ ١٥٥ مليون طن في العام .
- ٣- الولايات المتحدة وتأخذ ٤٠ مليون طن في العام .
- ٤- بقية أجزاء العالم وتأخذ ١٦٠ مليون طن في العام .

" كتاب شهود العصر - الأهرام - ١٩٨٦ "

لغة الأرقام

وخبراء وزارة المال والتجارة الأمريكية يتوقعون أن يكون الوضع المالي بين البلاد العربية المنتجة والمصدرة للنفط ، وبين الولايات المتحدة الأمريكية ، على النحو التالي :

١- سيبلغ صافي أرباح الشركات الأمريكية من صناعة النفط العربية ثلاثة بلايين من الدولارات في عام ١٩٧٥ ترتفع إلى ٤,٣ بليون دولار في عام ١٩٨٠ .

٢- يقدرّون دخلهم من خدمات النقل مع الوطن العربي بـ ١,٤ بليون دولار في عام ١٩٧٥ ، وترتفع إلى بليون دولار في عام ١٩٨٠ .

٣- يقدرّون أن يصدروا بضائع وخدمات إلى الوطن العربي بقيمة ٥ بلايين من الدولارات في عام ١٩٧٥ ، ترتفع إلى ١٠ بلايين من الدولارات في عام ١٩٨٠ .

٤- إنهم يقدرّون أن يزداد حجم صادراتهم مع البلاد الأخرى التي تحصل على عوائد نفطية (بلاد المرور) ، من ثمانية ملايين من الدولارات في عام ١٩٧٣ ، إلى ١,٧ بليون دولار في عام ١٩٨٠ .

٥- يتوقعون في وزارتي المالية والتجارة في أمريكا ، أن تبدأ الدول العربية المنتجة والمصدرة للنفط ، بتوظيف أموالها الفائضة عن حاجتها ، في الصناعة في بلادهم فتبدأ هذه الأموال العربية تتدفق ابتداء من عام ١٩٧٥ ، بمعدل سنوي قدره ٢,٧ بليون دولار ، يرتفع إلى ٥,٤ بليون في عام ١٩٨٠ .

" شهود العصر "

من عناوين الأفلام والمسرحيات

♦ خذ الفلوس واجري

♦ خلطيطه

♦ حزميني يا بابا

♦ ماما أمريكا

♦ الإرهابي

♦ تتحوزيني يا غسل

♦ شارع محمد علي

♦ العين الحمراء

♦ تكسب يا خيشه

♦ إزاز في إزاز

♦ يا تحب يا تقب

من عناوين الصحف

- مشاهير سقطوا في شباك الجميلات .
- سيدة تكتشف رسائل السلع والمواد الغذائية غير الصالحة .
- مهندسة تتعاطى رشوة لاستخراج رخصة بناء عقار .
- اعترافات سفاح الأطفال .
- إبراهيم نافع يكتب عن " كابوس الإرهاب وسقوط الأقنعة " .
- سقطت آخر العنقود ، وهي تتاجر في الأقراص المخدرة .
- الزوج المهاجر بلا عنوان .
- ٨ سيارات نجدة لتأمين قاعة المؤتمرات .
- المحامي والمحاسب سرقا ١٢٠ ألف ريال من كفيلهما .

القاموس العصري

أحمد عدوية : مغني ذائع بين جماهير المصريين ، وتوزع " كاسيتاته " بكثرة ، وقد حقق من وراء ذلك أموالاً وسيارات وعمارات ، له أتباع كثيرون ، ومن أشهر أغانيه :

السح الدح امبو إدي الواد لأبوه

أرنب : حيوان يؤكل ، ويتناسل بكثرة ، وقد أصبح يستخدم في معنى جديد بعد عصر الانفتاح في مصر ، فهم يطلقونه على " المليون " جنيه بجامع أن المليون مثل الأرنب تتناسل بكثرة ، ويمكن بالفهلوة أن تتحول بسرعة إلى ملايين كثيرة .

الإيدز : كلمة أمريكية مكونة من عدة حروف " A.I.D.S " وهي مختصرة من Acquired Immune Deficiency Syndrome وهو مرض يصيب الجسم بفقدان المناعه ، فلا يستطيع المقاومة حتى يتحلل ، ويقال إن للشذوذ الجنسي دوراً رئيسياً في انتشار هذا المرض ، وقد تسلسل هذا المرض إلى البلاد العربية ، كما أثبتت ذلك منظمة الصحة العالمية .

بتروول : وهي مأخوذة من الكلمة اللاتينية Petroleum ويقابلها في اللغة العربية كلمة نفط ، وقد اكتشف النفط في البلاد العربية في العصر الحديث ، وأصبحت البلاد العربية أكبر منتج للبترول في العالم ، فحصة الأقطار العربية الخليجية من فوائض الأربك المالية تبلغ ٩٠٪ كما جاء في

مجهول المؤلف ، ونكفي بذكر غاذاج منه ، وهو مرتب أبجدياً . " المحقق "

مجلة النفط والتنمية (أيلول ١٩٨٥) ، وقد بلغت عائدات البترول للدول العربية سنة ١٩٨٠ نحواً من ٢٠٤ مليار دولار ، كما جاء في التقرير الاستراتيجي الصادر عن صحيفة الأهرام سنة ١٩٨٦ م .

وكان من نتيجة ذلك أن دخل العرب مرحلة جديدة في تاريخهم ، يستوردون السيارات والمأكولات والملبوسات وأدوات الزينة والتجميل ، ويتمتعون بنعم الله التي لا تحصى ، ويحمدونه عز وجل على أن سخر لهم الأمريكان والطيّان وسائر الفرنجة يستخرجون لهم البترول ، ويصنعون لهم الآلات والمستوردات ، وهم آمنون مطمئنون ، تحقيقاً لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات ﴾ .

بنك : وهي ترجمة للكلمة الإنجليزية Bank ويقابلها في اللغة العربية كلمة "مصرف" . وأشهر البنوك ما كانت في لندن ونيويورك وجوهانسبرج ، والعرب يودعون أموالهم في تلك البنوك حرصاً على نعمة المال التي أمر الله بصيانتها ، وقد قدرت الفوائض المالية البترولية المستثمرة في الغرب بنحو ٣٠٠ مليار دولار سنة ١٩٨٠ ولأربع دول عربية فقط ، كما نشرت صحيفة الأهرام في عددها ١٩٨٦/٥/٩ م .

جبنّة : كلمة عربية تطلق على مستخرجات الألبان ، وهي أنواع وأجودها ما كان يصنع في فرنسا ، ويغرم العرب بنوع منها يسمونه البقرة الضاحكة La Vache Quirit ومرسوم على غلاف العلبة بقرة تضحك ببلاهة ، وقد فتحت فمها بشراة واتسعت ففتحتا المنخرين ، وأطلت من أذنيها علبتان من الجبن كالقرط الثمين ، ونظرتها تتسم بالبلادة والشرهة والغفلة ، والسعادة الزائفة التي لا تنظر إلى جلاذيتها وكأنها مسافة دون فهم .

خرمنا التعريفه ودهنا الهوا دوكر : من أمثلة العامة ، وهي بديل لكلمة "الفهلوة" ، والفرق بينهما أن الفهلوة تعتمد على الخبرة والحيلة ، أما هذا المثل فهو يحقق المطلوب دون تعب ولا دوشة .

الخنزيرة : نوع من المرسيدس مثل " الزلمكة " و " الشبح " و " البودرة " .
دولار : عملة أمريكية ، وهي فئات ، وعلى كل فئة صورة لرئيس أمريكي .

فئة دولار عليها صورة واشنطن ، وفئة ٥ عليها صورة لينكولن ،
وفئة ١٠ عليها صورة هاميلتون ، وفئة ٢٠ عليها صورة جاكسون ،
وفئة ١٠٠ عليها صورة فرانكلين .
وهي عملة محترمة جداً في البلاد العربية ، وتزداد قيمتها بازدياد أرقامها ،
وتقاس مقادير الرجال بحسب تلك الأرقام .

المقدمة ^①

وواضح أن أغلب الكلمات أصلها أجنبي ، وهي تهتم بالنواحي المادية الحياتية ، أما النواحي الدينية والمعنوية فلا حاجة إلى ذكرها فهي مستوفاة في القواميس القديمة ، وخاصة لسان العرب .

① بعد أن استوفى صاحب القاموس المراد حسب ترتيبها الأبجدي ، ذكر تلك المقدمة وهي وإن كانت قصيرة إلا أنها ذات دلالة بالغة ، ويلاحظ أنه قد وضعها في نهاية القاموس ، لأسباب لازلتنا نجهلها . " المحقق "

أستشعر أن هذا الليل لا يؤذن بالاسفار ، وأحس أن الظلمات تتكاثف وتتابع كأنها كائب من الجنود ، تدك الأرض ، وتثير الفزع ، ارتفع شخير الناس في المدينة تحركت الأشباح .

جاء صوت الشيخ عبد الرحمن الجبرتي يتلو :

" فغيمت السماء غيماً كثيفاً وأرعدت رعداً مزعجاً عنيفاً وأمطرت مطراً غزيراً وسيلت سيلاً كثيراً ، فسالت المياه في الجهات وتوحدت جميع السكك والطرق فاشتغل الناس بتجفيف المياه والأرواح ، ولطخت الأمراء والعساكر بسرابيلهم ومراكبيهم بالطين ، والفرنساوية هجموا على مصر وبولاق من كل ناحية ، ولم يبالوا بالأمطار لأنهم في خارج الأبنية وهي لا تتأثر بالمياه كداعحل الأبنية ، وعندهم الاستعداد والتحفظ والخفة في ملابسهم وما على رؤوسهم ، وكذلك أسلحتهم وعددهم وصنائعهم ، بخلاف المسلمين ، فلما حصل ذلك اغتنموا الفرصة وهجموا على البلدين من كل ناحية وعملوا قتائل مغمسة بالزيت والقطران ، وكعكات غليظة ملوية على أعناقهم معمولة بالنفط والمياه المصنوعة المقطرة التي تشتعل ويقوى لهبها بالماء ، وكان معظم كبستهم من ناحية باب الحديد وكوم أبي الريش ووجهة بركة الرطلي وقنطرة الحاجب ووجهة الحسينية والرميلة ، فكانوا يرمون المدافع والبنات من قلعة جامع الظاهر وقلعة قنطرة الليمون ، ويهجمون أيضاً وأمامهم المدافع وطائفة خلفهم بواردية يقال لهم السلطات يرمون بالبندق المتتابع ، وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يلهبون بها السقائف وضرب الحوانيت وشبابيك السلور ، ويزحفون على هذه الصورة شيئاً فشيئاً ، والمسلمون أيضاً بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة

همتهم وعزمهم وتحول الأغا وأكثر الناس إلى تلك الجهة وزلزلوا في ذلك
اليوم والليلة زلزالا شديداً ، وهاجت العامة وصرخت النساء والصبيان ،
ونطوا من الحيطان ، والنيران تأخذ المتوسطين بين الفئتين من كل جهة ،
هذا والأمطار تسح حصّة من النهار وكذلك بالليل من ليلة الجمعة وكذلك
الرعد والبرق " .

أوى إلى فراشه حزينا ، فالقدس قد ضاع ، ولم تبق إلا الكلمات يتدرب بها الناس ، ويخلقون عالماً من الأحلام .

رأى نفسه تحف ، وتفارق الفراش ، وتصعد البراق .

كان البراق يخترق الظلام كأنه صاروخ ، قوائمه محجلة يتطاير منها الشرر يصدر منه غطيط كأزيز المحركات .

وما هي إلا هنيهة حتى ظهر بيت المقدس ، لم يكن هناك أنبياء يصطفون للصلاة ، كان هناك أطفال صغار ضامرو الوجوه ، يلقون الحجارة بغيظ ، على مجموعة من العساكر تستر بسحب من الدخان الأسود ، وتقفز هنا وهناك كالقردة والخنازير .

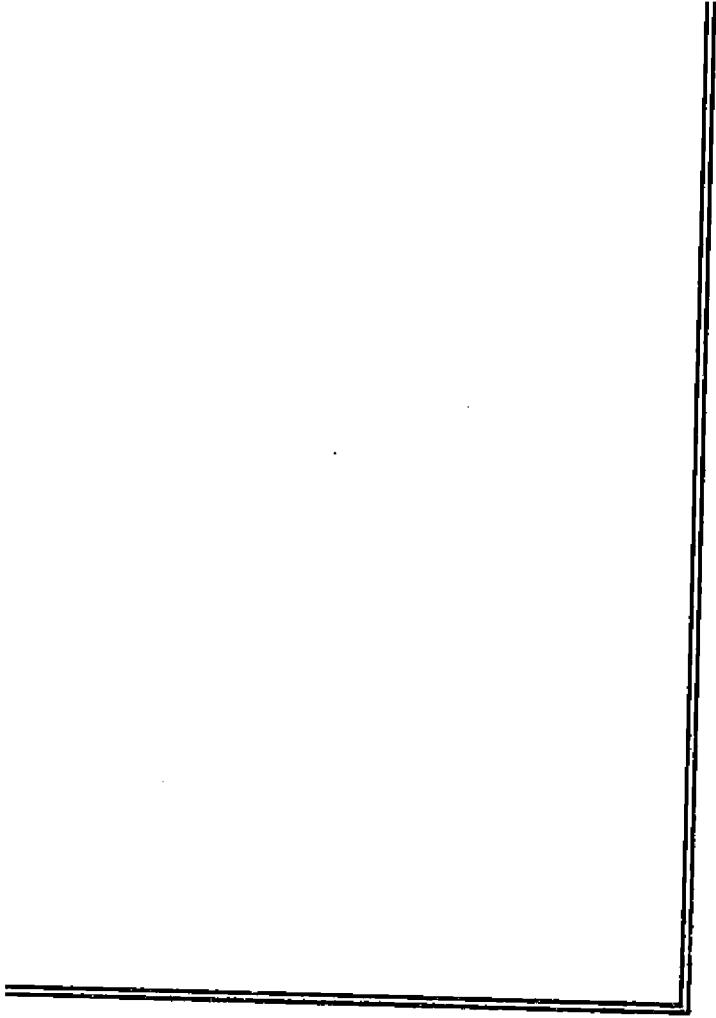
تقدم من الأطفال ليؤمهم للصلاة ، فأشاروا إليه بأن يتنحى بعيداً فليس هو إمامهم المنتظر .

حينئذ تبخر البراق أمام عينيه ، ووجد نفسه من جديد يتقلب على فراش كوخ الإبر .

كوابيس تنغص عليه نومه ، تظهر مخلوقات بذيول طويلة ، وعيون تلهب
بالشرر ، كانت تجلده بالسياط ، وتقف فوق بطنه .

صرخ صرخة قوية سدت الأفق ثم صاح : اللهم إنا لا نسألك رد
القضاء ولكن نسألك اللطف فيه .

سفر الفلق



1. The first part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

أحس بحركة تدب في جناح الطائر ، لعله يريد أن ينهض وأن يعيد
توازنه ، وضع يده على قلب الطائر فوجده لا يزال ينبض ، ويضخ الدماء ،
فحمد الله وقال : كل شيء يهون ما دام القلب سليماً .

رأى مجموعة من الأطباء يتجمعون حول الطائر ، كانوا من جنسيات
مختلفة ، مصري ، سعودي ، يمني ، شامي ، مغربي ، تونسي ، تركي ،
باكستاني ، أفغانستانى .

تذكر على الفور المؤتمر الذي عقده الكواكبي في كتابه " أم القرى " ،
لعلاج أدواء الأمة الإسلامية ، ثم قال :

لعلهم يفلحون هذه المرة في أن يجعلوا نظرتهم تتجه ولو قليلاً إلى أسفل ،
لعله يتنبه للصغار ، فنحن في عصر الصغار ، لعله يفتن إلى المكائد فنحن في
زمن المؤامرات .

كان توفيقاً من الله أن يلهمه حل اللغز الثالث .

تفتحت له كلمة " توفيق " هذه المرة عن معنى جديد لم يخطر له من قبل .

تعجب كيف كان هذا المعنى غائباً عنه من قبل . لعله هو قد تغير من داخله ، لعله أراد هذا المعنى فجاءه يسعى ، لعله قد تعرض له ، قد اقترب منه ذراعاً ، فجاءه يهرول إليه باعاً .

ليس كل هذا مهماً ، ولكن المهم أن هذا المعنى الجديد لم يصبه بالخيبة ، ولم يجعل النعاس يزاحمه .

نفض عن نفسه غبار الكسل ، ونهض يقاوم الكوابيس ، ويطارد فلول الظلام .

حقاً قد يعمل عمل أهل الجنة ثم يكون من أصحاب النار ، ولكن هذا لا يعني تحريضاً على ترك عمل أهل الجنة .

وحقاً قد يعمل عمل أهل النار ثم يكون من أصحاب الجنة ، ولكن هذا لا يعني إغراء بعمل أهل النار .

إن كل هذا يعني ألا يعتمد المرء على حساباته الشخصية ، وألا يستقيم إلى قدراته البشرية .

في غيبة التوفيق ، قد ينجح فيغتر ، وقد يفشل فيحبط ، وفي كلتا الحالتين سوف يدع العمل البتة .

ومع التوفيق سيظل باب العمل مفتوحاً حتى النهاية ، إنه يعمل في استماتة دون توقع للجزاء . إنه يعمل لأنه يجب أن يعمل ، ولأنه يجب أن يظل يعمل ، سواء واثته الحسابات أو خاتته .

وتفهم تماماً الحديث النبوي " يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك ،
إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله ، فمن شاء أقام ، ومن
شاء أزاغ " .

إن هذا الحديث لا يعني الفوضى ولا التخبط ولا ترك الأسباب ، ولكنه
يعني التنبيه للحسابات العليا ، واليقظ لما لا يكون في الحسبان ، وترك
الباب مفتوحاً لاقتناص الفيوضات .

إنه يعني الخشية واستمرار العمل ثم التعرض للنفحات .

عند هذا الحد كان الفجر الصادق قد بدأ يطل من جديد ، وانبعثت
الأصوات تؤذن من كل جانب، واختلطت أصوات المؤذنين في نغمة
جماعية ، ثم تعالت كأنها تسايح الملائكة .
أحس بالرضا ، ثم سأل الله التوفيق .

كلما عاود قراءة سورة النصر ، أحس فيها بمعان جديدة تتجاوز مخاوف ابن عباس رضي الله عنه .

قد تحمل هذه السورة معنى التوديع ولكنها في الوقت نفسه تحمل معنى البقاء والامتداد ، وعرف لماذا غلب عليها اسم " سورة النصر " ولم يغلب عليها اسم " سورة التوديع " ، وعرف لماذا كان يحس النبي ﷺ بعد قراءتها بالاستبشار والتفاؤل .

وأدرك أن روح هذا الدين لا تضع ، إن الحياة فيه تنبثق من الموت ، وإن النصر فيه ينبثق من المحنة ، وإن البناء يرتفع فوق الانقراض ، وإن مع العسر يسرا .

وانهمك يتلو سورة " الشرح " .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ
 ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ
 الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ⑧

بعد أن فرغ من قراءة السورة ، أحس كأنه قد خرج لتوه من مغسله ،
نقياً طاهراً ، قد تخلص من كل الأوزار والأضرار ، وأنه خفيف يرقى إلى
قمة عالية ، ليس بينها وبين السماء حجاب .

وأحس أيضاً أن السورة في نهايتها تستنفر قواه لكي يحتفظ بالقمة ،
تدعوه كلما أحس بالفراغ أو الفتور أو الونى ، أن يتعب وينصب ، وإلى
ربه يرغب ، حتى يظل دائماً مشدوداً في قمة توتره ، وفي مشغوليته التي لا
تعرف الفراغ .

إن الحركة هي الحياة ، وإن الفراغ هو الموت ، وإن السكينة هي
الثبات ، أول السورة يدعو إلى السكينة وآخرها يغريه بالحركة .

كم هي مسئولية خسيسة ، وتذكر على الفور حركة الأجنحة الخفيفة
والمتواصلة ، ونظر إلى عين الطائر ودعا له بالثبات ، ولمح قطرات الدم فوق
جناحه الغربي قد تجمدت ، ثم عزم على أن يحتفظ بالقمة مهما كانت
الأسباب ، ولن يسقط هذه المرة وأخذ يطهر الجرح من الهوام والحشرات .

أخذت عينه تنتقل بين الإحصائيات ولغة الأرقام والمواويل ومفردات الحياة اليومية فأحس بأنه يختنق ، وتحولت الدنيا أمامه إلى لون كاب ، وتحركت أعضاؤه ، وأحس بالغصة ، وتمنى لو يتلاشى ، لو يموت .

ولكن شيئاً ما بدأ يتحرك داخله ، يأتيه في تلك اللحظات ، لا يعرف سببه ولا مصدره ، ولكن يجعله يحس أنه فوق الغصة والقيء والغثيان .

وتذكر حلماً كان قد رآه وهو صغير ، لا يزال هذا الحلم يعاوده على غير موعد ، وفي وضوح وجلاء أكبر من الحقيقة نفسها ، كان صغيراً قد نام وهو حزين ، فرأى نفسه محبوساً في باطن الأرض ، تكاد تعصره ، ولكن فجأة تنمو له أظفار طويلة وخشنة ، أخذ يحفر في باطن الأرض ، شيئاً فشيئاً ، حتى استطاع أن يحفر له سرداباً طويلاً ضيقاً ، أفضى به إلى فتحة ، أزاح عنها بعض التراب ، أطل منها كأرنب صغير ، فلمح ضوء الشمس ، ووجد الدنيا تضحك له ، ووجد شقيقه في انتظاره أمام الفتحة يصفق له .

لم يعد هذا الحلم حلماً ، بل أصبح حقيقة تعاوده فجأة دون مقدمات ولا أسباب ، كان مرة يستمع إلى سيمفونية القدر وأحس فيها بصوت رفيع رقيق ، تحصره وتطارده أصوات خشنة ، تريد أن تخنقه ، ولكن هذا الصوت الرفيع الرقيق يعمضي في طريقه لا يبالي ، وعاعوده حيثئذ حلمه ، وتذكر أظافره الطويلة التي تشق السرداب .

وأراد أن يشرح كل ذلك لطفله ، الذي كان يستمع معه إلى تلك الموسيقى ، ولكنه لم يستطع ، فقد كان طفله صغيراً ، لم يجرب بعد تلك الأصوات الخشنة ، فاكفى بأن ذكر له أن هذا الصوت الرفيع الرقيق ، إنما

هو صوت غزالة جميلة ، تجري والصيدون يلاحقونها بأصواتهم الخشنة ، كانت لا تبالي ، تجري وهي تغني متتشة ، والصيدون يلهثون وراءها ، حتى سكنت الأصوات الخشنة ، ولم يعد هناك صوت سوى ذلك الصوت الرفيع ، يملأ الأسماع ، ويتصدر اللحن .

وأحس كما لو أن الله معه يتشله من الغصة في الوقت المناسب ، ولم يعد يخشى شيئاً ، ولم تعد الصعاب تحطمه ، بل أصبحت تبعث في داخله صوتاً رفيعاً يتحدى الصيادين ، وتذكر من جديد فتحة السرداب ، وشقيقه الذي يصفق له ، وتذكر كاتباً شاباً ، يجد عنده ذلك الصوت الرفيع الرقيق ، الذي يطل برأسه عنيداً ، يتحدى الأصوات الخشنة وخبطات القدر ، وأعاد من جديد قراءة قصته " اليمامة المضروبة " ، وتمنى لو أن عنوانها كان " اليمامة العنيدة " .

وتفتحت له دنيا جديدة .

مسكين ابن خلدون ، كتب مقدمته والعالم الإسلامي في حالة احتضار ، فبدا كما لو أنه يقف على الأطلال يكي ، ويثير العبرة ، فالدنيا دول ، والقمر يصبح بدرأ ثم محاقاً ، والطفل يصبح شاباً ثم شيخاً ، والملك لله يؤتية من يشاء وينزعه من شاء .

ومسكين العقاد أيضاً ، كان يحلو له أن يقرأ كثيراً عن الحشرات ، كان يراها مسودة الإنسان ، كان يتحدث عن الحتمية البيولوجية التي تسير الإنسان .

وامتدت يده إلى المصحف الشريف ، وأخذ يتلو الآيات الكريمة عن هلاك عاد وثمود وقرم تبع ، إنه لا يحس هنا نبذة رثاء وبكاء ، إنه يحس بنبرة استنفار ، لكي تتجاوز الغصة ، ونعلو فوق الغثيان ، وتذكر كلاماً

لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إنه يشبه في مضمونه كلام ابن خلدون ، ولكنه يختلف عنه في النغمة ، إن عمر في كلامه لا يبكي على الأطلال ، ولا يتحدث بنغمة الرثاء ، ولا يثير الأحزان والأشجان ، إنه يتحدث والحضارة الإسلامية في كمالها وقوتها ، وهو يريد أن يتدخل حتى لا تفقد قوتها ، وحتى لا يجري عليها ما جرى لمن لا يعتبر ، وتذكر من جديد حلمه القديم ، وتذكر الغزاة التي تمضي في طريقها وهي تغني منتشية ، وتمنى أن يكتب قصة " اليمامة العنيدة " ، ثم تسأل :

حقاً ، إن البدر قد يصبح محاقاً ولكنه يیزغ من جديد ، وحقاً إن الإنسان قد يصبح شيخاً ولكن طفله يعاود السيرة من جديد ، وحقاً إن الحشرات قد تكون مسودة الإنسان ولكن الحضارات لا تصنعها المسودات .

عند هذا الحد لمح في الأفق شهاباً ثاقباً ، يضيء ، ثم يستطيل ، ثم ينقض على الجن والعفاريت ، فصاح : مدد يا سيدنا الخضر .

• اليمامة المضروبة

وأنا صغير أجوب الخلاء ، أرفع رأسي ، إذ أسمع فوقي رفيفاً مضطرباً
لطائر يرق ، إنها يمامة مضروبة ، تهوي .

ها هي ذي فرصة سانحة للحصول على يمامة بلا عناء ، وأطير وراءها .
هأنذا أجري ، واليمامة تهوي ، ضربها أحدهم دون أن يصيبها في مقتل
(أفكر في كونها ستقع بمكان قريب) .

جناحها مضروب ، لكنها عنيدة ، أجري أنا . تحت ، وترفرف هي
فوق . تهبط رويداً رويداً حتى أكاد ألمسها ، أرفع يدي قافزاً لأنها ،
لكنها تنفلت ، تنطلق بأسرع ما تقدر ، وتسقط من جناحها المضروب
قطرة حمراء ساخنة ، تبل يدي ، تطير فوق حقل مشتل ، أخوض لألحق
بها ، لاهثاً ، فتغرز قدمي في الطين ! ها هي ذي تبتعد وأنا مغرور ،
أدرك أنها أفلتت وأنتي لن أمسك بها أبداً ، أمسح قطرة دمها التي جفت
وغمقت على يدي ، وهي - اليمامة المضروبة - أراها هناك .
نقطة ربيعة .

• في مجموعة " الآتي " بقلم : محمد المخزنجي .

امتدت إليه يد ، كان صاحبها يلبس لباساً أبيض ، ويتمنطق بحزام أخضر ، فعرف للتو أنه الخضر .

سحبه إلى أعلى في طريق نوراني كأنه البحر الفضي أو الكوكب الدري ، حتى وصل به إلى مكان فسيح ، يشع نوراً من كل اتجاه ، وتحيط به الأنهار من كل جانب هذا نهر من ماء غير آسن ، وهذا نهر من غسل مصفى ، وهذا نهر من لبن لم يتغير طعمه ، وهذا نهر من حمر لذة للشاربين .

كان هناك قوم يجلسون على سندس خضر ، على وجوههم نور الشهداء وسكينة العلماء ، تحيط بهم رائحة من البخور ، تعبق المكان وتثير الخدر . كانوا يقرعون في كتب التاريخ ، يستخلصون العبر والعظات ، ثم يقدمون الخلاصة على هيئة وصايا ، مركزة ومنعمة ، كأنها الحكم النادرة أو الأمثال السائرة .

يقوم أحدهم لينشد الوصية ويجاوبه آخر ، ثم ينخرط الجميع في صوت واحد ، تهتز له جنبات الساحة :

" الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، والله الحمد".
وتذكر على الفور أناشيد العيد في قريته ، الإمام ينشد ، ويجاوبه الجميع بهذا التهليل ، في نغمة ابتهاج وانتصار .

وأحس بطائره ينتعش ، ينهض ، يتصلب في السماء ، جناح في الشرق وجناح في الغرب ، يظلل الجميع ، كأم تحنو على أولادها .

تقدم رجلان ، كان أحدهما يكبر الآخر ، لمح وراعهما شريطاً يتحرك كأنه "الشاشة" المضيفة ، كان هناك آلاف من الحجاج ، يتجولون في المسجد الحرام ، هذا تركي ، وهذا أفغاني ، وهذا صيني ، وهذا إفريقي ، وهذا أمريكي ، وهذا أيرلندي .

ثم تبدل المنظر فكانت هناك قباب ومآذن تتبادل أمكتها ، هذا هو الأزهر الشريف ، وهذا جامع الزيتونة ، وهذا مسجد بخاري ، وهذا جامع القيروان ، وهذا مسجد قرطبة .

كان الأول هو الأفغاني ، وكان الثاني هو محمد إقبال .

تقدم الأفغاني ، يستخلص تجربته ويتحدث عن أن الإسلام هو روح الثورات في العصر الحديث ، وأنه يطلق روح المقاومة ، وعن طريقه دك العروش وهز الصروح ، فليس هو أفيون الشعوب ، يخدر الجماهير ، ويؤازر السلطة ، بل هو ثورة ووعي ، ثم قدم الوصية الأولى :

" الإسلام مفجر الثورات ، ضد الظالمين والطغاة "

وجاوبه إقبال يستخلص العبرة ، ويذكر أنه قد قرأ كتب الفلسفة ، وعاش في بلاد أوروبية ، وحاور وجادل ، وأيقن أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، لأن مبادئه متجددة ، لا تقف عقبة أمام المنجزات الحديثة ، وأنه من أجل ذلك ساهم في إنشاء حكومة عصرية تقوم على المبادئ الإسلامية ، وهي دولة باكستان ، ثم قدم الوصية الثانية :

" الإسلام تجديد لما هو آت ، فلا تكن عبداً لكل من مات "

وتشابهك الاثنان في نغمة واحدة ، يتلوان الوصية الثالثة :

" الدين يحمي الشعوب والرفات ، فلا تصدقوا ما قيل من ترهات "

عندئذ اهتزت رعوس الحاضرين ، وتمايلت الأبدان ، وانخرط الجميع في

إيقاع واحد :

"الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد" .

وبهذا تعلم أن المنع من التقليد إن لم يكن إجماعاً فهو مذهب الجمهور .
ويؤيد هذا ما سيأتي في المسألة التي بعد هذه من حكاية الإجماع على
عدم جواز تقليد الأموات ، وكذلك ما سيأتي من أن عمل المجتهد برأيه
إنما هو رخصة له عند عدم الدليل ولا يجوز لغيره أن يعمل به بالإجماع ،
فهذان الإجماعان يجتثان التقليد من أصله ، فالعجب من كثير من أهل
الأصول حيث لم يحكوا هذا القول إلا عن بعض المعتزلة .. وقد ذم الله
تعالى المقلدين في كتابه العزيز في كثير من الآيات ﴿ إنا وجدنا آباءنا على
أمة ﴾ ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ ﴿ إنا أطعنا
ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل ﴾ وأمثال هذه الآيات ، ومن أراد
استيفاء البحث على التمام فليرجع إلى الرسالة التي قدمت الإشارة
إليها ، وإلى المؤلف الذي سميته " أدب الطلب ومنتهى الأرب " .
(الشوكاني)

ثم وقف اثنان يمسك كل منهما بيد الآخر ، تبدل المنظر ، ووجد أمامه صحراء عربية ، لا معة الرمال ، تبرق كأنها الذهب ، ولمح نخلته تتراعى في الأفق ، وتراقص أشعتها كعرائس الجان ، كان خلفها هلال صغير يسبح في الفضاء كزورق من فضة .

كان أحدهما هو الجبرتي ، والآخر هو لطف الله جحاف .
تكلم الجبرتي وأخذ يقرأ من كتابه " عجائب الآثار " قصة سليمان الحلبي شاب من الشام ، جاور في الأزهر الشريف ، وتلمذ على يد علمائه الأجلاء ، ساءته الحملة الفرنسية ، فعزم على الانتقام ، وطعن كليبر بمديّة نافذة ، وجعل الجبرتي يقدم الوصية الرابعة :

" مصر والعروبة أخوان ، فهما أبداً لا يفترقان "

وجاوبه لطف الله جحاف ، يتلو من كتابه " دور نحور الحور العين " قصة المجاهدين في مكة ، أفزعهم أن يهجم الكفار الفرنسيين على مصر المحروسة ، فدعوا إلى الجهاد ، وجاءوا إلى صعيد مصر ، يقضون مضاجع الكفار ، ويستشهدون في سبيل الله ، ثم قدم الوصية الخامسة :

" العروبة روح في الأبدان ، فاجعلوها أساس البنين "

وتراسل الاثنان في نفس واحد ، يتلوان الوصية السادسة :

" العروبة درع لمن في مصر أو يمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان "

واهتزت الرعوس ، وتمائلت الأبدان ، وانخرط الكل في إيقاع واحد :

" الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد . "

ودخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ، وفيها قام في البلدة الحرام ،
 بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعار سنام الإسلام ، محمد المغربي الجيلاني
 الهاشمي لما وردت الأعلام ، بما صنعه الكفرة اللغام ، من الهجوم على
 ساحات مصر ، وتصدر بالحرم الشريف فالتف عليه خلائق ، واستمعوا
 إرشاده إلى أنهج الطرائق ، وفعل دعاه بالقلوب ما فعل ، وتسامع الناس
 بأخباره فوردوا إليه ، وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه ، وكانت النساء
 تأتي فتستمع ما يمليه من أحاديث الخضر على الجهاد ، فيلقين إلى الحلقة
 فتحاتهن وعقودهن وملبوسهن ، ويقفن ذلك الذي علينا ، فاجتمعت عنده
 أموال واسعة ، ووردت إليه المتطوعة من البلاد الشاسعة ، فسار بهم
 لمناجزة أعداء الله الفرانسة " .

(درر نحر الحور العين)

وظهر بين الأثل والشوك وسعف النخيل ، وجه لم يغب عن باله أبدا ،
كان يراه في كل أخلود من الأرض ، وعلى كل حنية جبل ، وفوق وجوه
الفلاحين والفلاحات ، فصاح : إنه عرابي .

وتبعه شيخ حليل حاد النظرة ، تتداخل حبات الشعر في ذقنه العريضة
فتبدو كعناقيد العنب أو سباط النخيل ، تذكرت على الفور تلك الصورة ،
التي كنت أراها على " الجنيه " الأخضر ، صورة النيل ترقد كعملاق على
صفحة الجنيه المصري ، وقد عمد من شمال الوادي إلى جنوبه ، تحيط به
كرور العنب وسنابل القمح ، ويتسلق فوق أكتافه أبناؤه الصغار ، كأنهم
الملائكة يرفرفون في جنات خضر . تفرست فيه قليلاً ، فعرفت على الفور
أنه الرافي .

جعل عرابي يتحدث عن ثورة الفلاحين ، كان الناس يظنون صمتهم
جنباً وسكوتهم ذلاً ، ولكنهم فجأة انطلقوا تحت قيادته يهددون الدخلاء ،
كان الزعيم هو شرارة الثورة ، وكانوا هم وقودها وحمايتها ، ثم قدم
الوصية السابعة :

" الفلاح كنز مدفون ، قد صهرته الليالي والسنون "

وجاوبه الرافي ، لم يكن يتحدث عن أفراد أو زعماء أو ملوك ، كان
يتحدث عن الجماهير المصرية ، وكان يسجل في كتبه دورها في ثورة
القاهرة ، وضد الحملة الإنجليزية وفي ثورة ١٩١٩ ، ثم قدم الوصية
الثامنة :

" جماهير شعبنا لا يخطفون ، وإن أخطأ المستبدون العادلون "

ثم تراسل الاثنان في نفس واحد ، يتلوآن الوصية التاسعة :

" مصر حضارة القرون ، مهما تقول المتقولون "

واهتزت الرعوس ، وتمايلت الأبدان ، وانخرط الكل في إيقاع واحد :

"الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد ."

أبو الهول

" وحفروا حوالي الرأس العظيمة التي بالقرب من الأهرام ، التي تسميها الناس رأس أبي الهول ، فظهر أنه جسم كبير عظيم ، من حجر واحد ممتد كأنه راقد على بطنه ، رافع رأسه ، وهي التي يراها الناس ، وباقي جسمه مغيب بما انهال عليه من رمال ، وساعده من مرفقيه ممتدان أمامه ، وبينهما شبه صنلوق مربع إلى استطالة ، من سماق أحمر ، عليه نقوش شبه قلم الطير في داخله صورة سبع مجسم ، من حجر مدهون بدهان أحمر ، رابض باسط ذراعيه في مقدار الكلب ، رفعوه أيضاً إلى بيت القنصل ، وقيس المرتفع من جسم أبي الهول ، من عند صدره إلى أعلى رأسه ، فكان اثنين وثلاثين ذراعاً ، وهي نحو الربع من باقي جسمه " .

(الجبرتي ٥٧٢/٣)

وتوالت العظائم والعبر ، وخشي أن يفوته منها شيء ، فجعل يرددها لكي يحفظها ظهراً عن قلب :

- الوصية الأولى : الإسلام مفجر الثورات ، ضد الظالمين والطغاة .
- الوصية الثانية : الإسلام تحديد لما هو آت ، فلا تكن عبداً لكل من مات .
- الوصية الثالثة : الدين يحيي الشعوب والرفات ، فلا تصدقوا ما قيل من ترهات .
- الوصية الرابعة : مصر والعروبة أخوان ، فهما أبداً لا يفترقان .
- الوصية الخامسة : العروبة روح في الأبدان ، فاجعلوها أسس البنيان .
- الوصية السادسة : العروبة درع لمن في مصر أو يمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان .
- الوصية السابعة : الفلاح كنز مدفون ، قد صهرته الليالي والسنون .
- الوصية الثامنة : جماهير شعبنا لا يخطئون ، وإن أخطأ المستبدون العادلون .
- الوصية التاسعة : هصر حضارة القرون ، مهما تقول المتقولون .

وانتشت نفسه ، وأخذ يحجل طرباً ، وتاه في لذة سرمدية ، حتى ضاعت منه الوصية العاشرة .

تقدم منه الخضر ، وسكب عليه ماء بارداً وهو يتلو

﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ﴾

ثم ألقاه وحده في جوف الفضاء ، فأحس أنه خفيف كَمُساfer قد تخلص من متاعه .

تخلّى عنه الخضر ، ووجد نفسه نشيطاً ، يحب وحده في السماء ، وجاءه صوت من داخله :

" أنت خضر نفسك ، فنقب عما في قلبك "

فعرف أنها الوصية العاشرة التي كان قد افتقدها ، فحمد الله واستشعر الثقة .

٥٣

سُورَةُ النِّجْمِ مَكِّيَّةٌ فِي ثَلَاثِينَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنْطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَيْهِ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪ أَفَتُمَدُّونَهُ عَلَىٰ مَا بَرَىٰ ⑫ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً
أُخْرَىٰ ⑬ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ⑭ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ⑮ إِذْ
يُبْغِشُ الْبَشِيرَ مَا يَبْغِشِي ⑯ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ⑱ أَفَوَيْتُهُ أَلَّتْ وَالْعُزَّىٰ ⑲ وَمَنْوَةٌ ثَالِثَةٌ
الْأُخْرَىٰ ⑳

كان قاب قوسين أو أدنى ، وأحس بنشوة ناعمة كأنها الحرير ، وبخدر
لذيذ يسري في أعضائه ، أغمض عينيه ، وكاد يتوه في حلم جميل كأنه
الموسيقى .

لولا أن جاءه صوت لا يعرف مصدره ، لم يكن صوت إنس أو جان ،
ولم يكن صوت بشر أو ملائكة .

كان صوت طائر كأنه " الكاه " ، لم ير طائراً مثله وإن أحس كأنه
يعرفه منذ آلاف السنين ، تفرس فيه فتعرف على روح الآباء والأجداد ،
وأدرك أنه الطائر الذي يجول كل مساء في سماء المنطقة ينتظر الموعودين .

قال له طائره بصوت كأنه النذير : " أفق حتى لا تضيع منك رسالة
الغفران فتفقد طريقك إلى الجنان " .

ثم سلمه صحيفة مكتوباً عليها " رسالة الغفران " .

رسالة الغفران

لا تفرط في السكر ، ولا تطل المكث في مقام الفناء ، تزود ثم عد ، عليك مقام البقاء .

الله رحيم فكن أنت رحيماً	وهو قوي فكن أيضاً قوياً
الله غفور فكن أنت غفوراً	وهو متين فكن أيضاً متيناً
الله سلام فكن أنت سلاماً	وهو قدير فكن أيضاً قديراً
الله غفار فكن أنت غفاراً	وهو قهار فكن أيضاً قهاراً
الله مؤمن فكن أنت مؤمناً	وهو مهيم فكن أيضاً مهيماً
الله ودود فكن أنت ودوداً	وهو منتقم فكن أيضاً منتقماً
الله حلیم فكن أنت حلیماً	وهو كبير فكن أيضاً كبيراً
الله رحمان فكن أنت رحماناً	وهو متعال فكن أيضاً متعالياً
الله شكور فكن أنت شكوراً	وهو قوي فكن أيضاً قوياً
الله رءوف فكن أنت رءوفاً	وهو عزيز فكن أيضاً عزيزاً
الله نور فكن أنت نوراً	وهو شديد فكن أيضاً شديداً
الله عفو فكن أنت عفواً	وهو منتقم فكن أيضاً منتقماً
الله تواب فكن أنت تواباً	وهو جبار فكن أيضاً جباراً
الله بر فكن أنت براً	وهو متكبر فكن أيضاً متكبراً
الله حلیم فكن أنت حلیماً	وهو مغيث فكن أيضاً مغيثاً
الله سمیع فكن أنت سمیعاً	وهو بصير فكن أيضاً بصيراً
الله قابض فكن أنت قابضاً	وهو باسط فكن أيضاً باسطاً
الله مقدم فكن أنت مقدماً	وهو مؤخر فكن أيضاً مؤخراً
الله معز فكن أنت معزاً	وهو مذل فكن أيضاً مذلاً
الله حافظ فكن أنت حافظاً	وهو رافع فكن أيضاً رافعاً
الله نافع فكن أنت نافعاً	وهو ضار فكن أيضاً ضاراً
الله ظاهر فكن أنت ظاهراً	وهو باطن فكن أيضاً باطناً

ووجد نفسه يردد الاسم الأعظم وما يقابله ، وواظب على ورده الجديد
 عقب كل صلاة جماعة ، يلتمس به الغفران .
 حيثئذ أحس بالامتلاء والتكامل ، وبأنه يضم الشرق والغرب معاً بين
 فكيه .

تساءلت ؟

مسكين أبو العلاء ، على الرغم من ذكائه وفلسفته وقدراته العقلية فإنه دائماً يضيع ، لقد افقد شيئاً أكبر من الذكاء ، شيئاً لا يأتي بالذكاء والاجتهاد ، وإنما يقذفه الله في قلب عباده .

مسكين أبو العلاء ، إنه مطرود من رحمة الله ، ضل الطريق ، فلم يصل إلى اليقين .

مسكين أبو العلاء ، أراد أن يدخل الجنة من غير طريقها ، أراد أن يعتمد على ورقة دون أن يفهم مضمونها ، أراد الغفران دون أن يحمل الرسالة .

مسكين أبو العلاء ، حين ضاعت منه الورقة ، أراد أن يتسلق على ظهر امرأة ، وأن تحمله زيزفونة في غفلة من الحراس والملائكة .

مسكين أبو العلاء ، جزاه الله من جنس عمله ، جنة من العقاريت والجان ، جنة خير منها للجحيم .

لم أجد الرسالة غريبة عليّ ، كأنها كانت مخفورة في قلبي ، كأنها في ذاكرتي منذ الصغر ، أحسست بالنشاط والخفة ، وكنت أقوى من السموات والأرض والجبال ، إنتي الآن أستطيع أن أحمل الأمانة ، لن أجهلها ، ولن أظلم نفسي ، فقد عرفت اليقين .

أحسست أنني أقبض على الشرق والغرب معاً ، وأخذت أردد :

الله رحيم فكن أنت رحيماً وهو قوي فكن أيضاً قوياً

تضاءلت من ذاكرتي صورة صاحب البيت مع أصحابه ، كنت أراهم في طفولتي تحت السلم ، في ظلام لا يكشف عن ملامحهم ، كأنهم الأرواح الخفية ، كانوا يرددون : الله ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر إلخ .

كانوا يكررون ، ويكررون ، ثم يغيبون في لذة سرمدية .

الآن تضاءلت تلك الصورة ، وحلت محلها حياة جديدة ، لن أقنع بالظلام ، ولن أعيش في الدهاليز ، ولن أتعامل مع الأرواح الخفية .

وصحت : سأعبد الله بين الناس ومع الناس ، سأحقق الرحمة والقوة معاً سأقبض على الشئيين معاً ، سوف أكون أقوى من الشرق والغرب معاً .

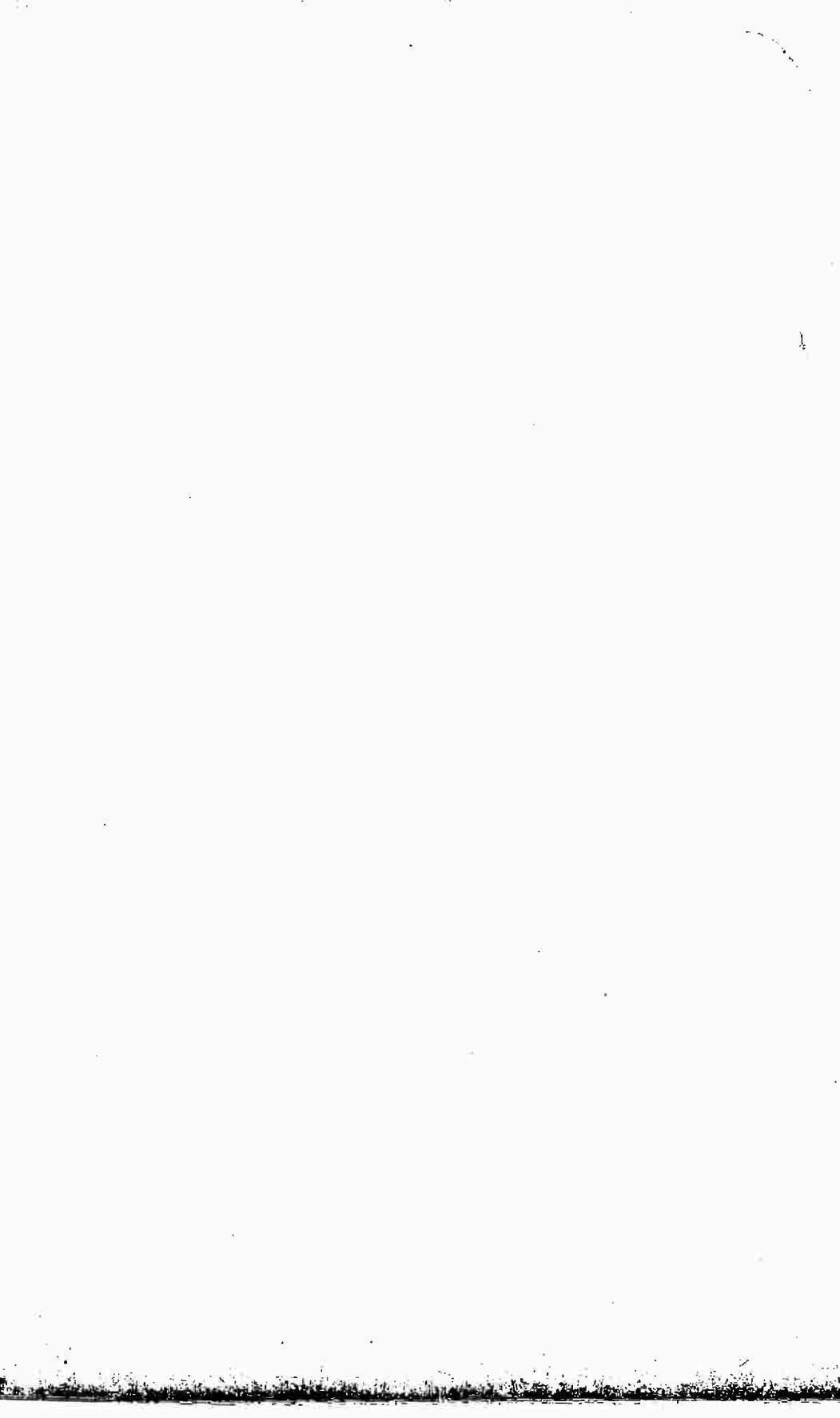
و كانت تلك صلاتي وهديتي من طائري الأليف .

تاقت نفسي إلى نخلتي ، لم أعد أراها وحيدة ، ولم أعد أرى الصغار يرمونها بالحجارة ، كانت تراهم من بعيد ، فتطامن وتتطامن حتى تصل إلى قامتهم ، فيجنون منها الثمار بأيديهم ، ويعبون منها ما يريلون ، ثم تعود إلى مكانها شائخة تضرب في أجواز السماء .

أحسست بالهدوء ، ولم أعد أفكر في كتاب " الوسطية العربية " فقد علمتني النخلة أن أعطي دون انتظار .

الخاتمة

كان اليوم هو يوم السابع والعشرين من شهر رمضان الكريم ،
وكان نور الفلق قد أخذ يملأ الأرض ، قمت من مكاني وأنا أصبح
" اللهم إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي " .
وأحسست بالبعث الجديد .



الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
سفر النصر	٥
سفر الكرب	٦١
سفر الفلق	٨٣
الخاتمة	١١٣

من مؤلفات

الأستاذ الدكتور عبد الحميد إبراهيم

- قصص الحب العربية :
الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨ م .
- من قصص العرب : الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ .
- قصص العشاق النثرية : دراسة في التراث القصصي .
الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨ .
- القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث : الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣ .
- الأدب وتجربة العبث : الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣ .
- القصة اليمنية المعاصرة . الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦ م .
- ألوان من القصة اليمنية المعاصرة .
الطبعة الأولى سنة ١٩٨١ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥ م .
- الوسطية العربية (٦ أجزاء) :-
الكتاب الأول : المذهب ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٠ .
- الكتاب الثاني : التطبيق ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦ .
- الكتاب الثالث : نحو وسطية معاصرة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩١ .
- الكتاب الرابع : نحو رواية عربية ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ .
- الكتاب الخامس : حلم ليلة القدر : رواية عربية ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ .
- الكتاب السادس : القرآن الكريم والمذهب الوسطي (تحت الطبع) .
- المسرح المصري بين ثلاثة أجيال : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ .

- القصة القصيرة في الستينيات :-
- الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨ .
- القصة القصيرة في السبعينيات :
- الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧ .
- لقطات : ألان روب جرييه (ترجمة) : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥ .
- الرعشة الأولى وهؤلاء الأدباء :
- الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦ ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٤ .
- مقالات في النقد الأدبي (١٥ جزءاً) :
- الجزء الأول سنة ١٩٨٨ ، الجزء الخامس عشر (تحت الطبع) .
- قاموس الألوان عند العرب : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩ .
- نقاد الحدائث وموت القارئ : الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ .
- نوادر الحب والحكمة : سلسلة من تراثنا القصصي العدد الأول سنة ١٩٩٥ .
- الرواية العربية والبحث عن جذور (تحت الطبع) .
- الرواية العربية والبحث عن شكل (تحت الطبع) .
- القصة القصيرة والبحث عن شكل (تحت الطبع) .
- التراث القصصي عند العرب (تحت الطبع) .
- الأدب المقارن من منظور الأدب العربي (تحت الطبع) .
- مشاهد وشواهد (تحت الطبع) .
- قال لقمان لابنه (تحت الطبع) .
- من أوراق طه حسين : الجزء الأول (تحت الطبع) .

١٩٩٥ / ١٠٣٠٢	رقم الإبداع
ISBN 977-02-5132-1	التقييم الدولي

٣ / ٩٥ / ٣١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)